حَبْلُ الاعْتِصَامِ
وَوُجُوبُ الْخِلاَفَةِ فِي دِيْنِ الإسْلاَمِ

لِلسَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَبِيْبٍ الْعُبَيْدِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

(١٨٨٠-١٩٦٣م)

ضَبَطَهُ عَلَى أَصْلِهِ وَحَقَّقَهُ: عِزُّ الدِّيْنِ

هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيْمِ الْبَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ

حَبْلُ الاعْتِصَامِ
وَوُجُوبُ الْخِلاَفَةِ فِي دِيْنِ الإسْلاَمِ

تَأْلِيْفُ
السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَبِيْبٍ الْعُبَيْدِيِّ الْمَوْصِلِيِّ

وَهِيَ رِسَالَةٌ دِيْنِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ غَرَضُهَا الْوَحِيْدُ تَوْحِيْدُ
الْكَلِمَةِ مِنْ أَهْلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيْدِ رَمّاً[1] لِلصَّدْعِ وَلَماً لِلشَّتَاتِ؛ إحْيَاءاً
لِمَجْدِ الْقُرْآنِ وَمَنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، خِدْمَةً لِلدِّيْنِ الْحَنِيْفِ
وَأَبْنَائِهِ، تَضْمَنُ لِلْمُسْلِمِيْنَ طِيْبَ الْحَيَاةِ فِي النَّشْأَتَيْنِ
إِذَا اسْتَمْسَكُواْ بِعُرْوَتِهَا الْوُثْقَى وَسَارُواْ
عَلَى طَرِيْقَتِهَا الْمُثْلَى وَاعْتَصَمُواْ
بِحَبْلِ اللهِ الْمَتِيْنِ

بِحَبْلِ اللهِ اعْتَصِمُواْ جَمِيْعاً وَلاَ تَتَفَرَّقُـواْ بَـيْنَ الأَنَـامِ
فَـإِنَّ اللهَ يَعْصِـمُكُمْ إِذَا مَـا تَمَسَّـكْتُمْ بِحَبْـلِ الاعْتِصَـامِ

[1] الرَّمُّ: إصلاحُ الشيءِ الذي فسدَ بعضهُ؛ من نحو حَبْلٍ بَلِيَ فَتَرُمُّهُ أو دار ترمُّ شأنَها مَرَمَّةً. ورمُّ الأمر إصلاحهُ بعد انتشاره، رَمَمْتُ الشيء أَرُمُّهُ وَأَرِمُّهُ أَصْلَحْتُهُ. والرمُّ إصلاحُ ما فسدَ ولَمُّ ما تفرَّقَ. لسان العرب لابن منظور:(رمم) ج ٥ ص٣٢٢-٣٢٣.

فَهْرَسُ الْمُحْتَوَيَاتِ



الْحَمْدُ للهِ، فَهُوَ حَسْبِي وَكَفَى
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم

مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيْقِ

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[1] وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[2].

ربما الشيء الأكثرُ ظهوراً يكون أشدُّ خفاءً، لا سيما إذا قَدِمَ عليه الزمنُ وتوارثه الجيل بعد الجيلِ على العادة والتلقي بالسجية، فكيف إذا كان الأمرُ مدبَّراً ومخططاً له؟! فلا بدَّ والحالُ هذه أن نسألَ خبيراً، ليدلَّ الجيل اللاحق على خفايا الحاضرِ من قصص الجيل السابق ليعتبر أولوا الأبصار.

ومما لا شكَّ فيه، أن الحيويةَ تتجددُ بالمذاكَرة والملاقحة على مختلف المستويات الفكريَّة والخبراتية، بما يؤدي إلى تنمية فكرة الجيل الحاضر بخبرة الجيل الماضي، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾[3].

ومن هنا شدَّ انتباهي اطلاعي لأول مرَّة علىالشيخ مُحَمَّد حبيب العبيدي رَحِمَهُ اللهُ بوصفه فقيهاً وسياسياً، إذ كان المشهورُ عنه أنه شاعر أديبٌ وناقد أريبٌ، فاطلعتُ على كتابه (حَبْلُ الاعْتِصَامِ ووُجُوبُ الْخِلاَفَةِ فِي دِيْنِ الإسْلاَمِ) وكان فيه فضلاً عن الفكرةِ ومعرفة الحكم الشرعيِّ، الإحساسُ المرهف والشعورُ الصادق واللهجة الصريحةُ الواضحة، للتعبيرِ المشفق عن حالِ الأمة ولأجلها.

وأرادَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ بحبل الاعتصام: الخلافة الجامعة لأمر المسلمين في قضايا الدنيا والدين؛ لقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾[4] حيث يعتقد أهل العلم من المفسرين وسائر علماء المسلمين أنَّ اعتصامَ الجماعة يقومُ بمعنيين لا ينفصلُ أحدهما من الآخر؛ بل يكتمل وجود أحدهما بالآخر، وإلا اعتور المسلمين النقصانُ في دينهم. وهما الجماعة بالألفة معتصمين بالعهد على حبلِ الله الذي هو التمسك بالكتاب والسُّنة اعتقاداً وعملاً. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿**بِحَبْلِ اللهِ**﴾: (الذي بمعنى العهد – البيعةُ للأمير

[1] ق/ ٣٧.
[2] يوسف/ ١١١.
[3] الفرقان/ ٥٩.
[4] آل عمران / ١٠٣.

العام – عن ابن عباس، وقال ابن مسعود: حبلُ الله: القُرْآنُ. ورواه علي وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ. وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك) ونقل من مسند بَقِيّ بن مخلَّد عن ابنِ مسعود: (الجماعة). والمراد العهدُ بالطاعة على اعتقاد الكتاب والسُّنة والعمل بِهما. ورحمَ اللهُ ابن المبارك حيث يقول:

إنَّ الْجَمَاعَـــــةَ حَبْـــــلُ اللهِ   مِنْهُ بعُرْوتهِ الوُثقى لِمَنْ دَانَـــا

قال القرطبي: (فأوجبَ اللهُ تعالى علينا التمسُّك بكتابه وسُنة نبيِّه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرَنا بالاجتماع علـــى الاعتصـــامِ بالكتاب والسُّنة اعتقاداً وعملاً. وذلك سببُ اتفاق الكلمة وانتظام الشَّتات الذي يتمُّ به مصالح الدنيا والدين عن الافتراق الذي حصلَ لأهل الكتابَين هذا معنى الآية على التمام)[1].

ولَمَّا نظرتُ ووجدتُ أن الكتابَ قد طبع طبعةً قديمة سنة (١٩١٦م) ولم تتجدَّدْ حيوية هذا الكتابِ على ما فيه من تعبيرٍ مُشرق ينظـــرُ آفاقَ المستقبل، ويلِجُ ظلمات الغيب السياسيِّ للتاريخ المعاصرِ للأمة الإسلامية، والتحذير النابه لها. وجدتُ أنه من الضروريِّ أن تتجدَّدَ حيويةُ الكتاب بلقاء يقرؤه المثقف المعاصرُ، ليتلمَّحَ خبرةَ الماضي في الحاضر.

ووجدتُ أن من الأمانة أن أحافظ على نصِّ الكتاب كما هو في طبعته المذكورة، لا كما فعلَ (محمَّد عزَّت نصر الله) في طبعةِ الكتـــاب الثانية، التي صدرت عن مؤسسة دارِ فلسطين للتأليف والترجمة – بيروت. إذ لم يحافِظْ على الكتابِ كما هو، فضلاً عن اتجاهِ الشـــيخ الفاضل مُحَمَّد حبيب في رؤيته للعالَم الإسلامي. وفي هذا تفصيلٌ لا يسعه المقامُ، وجزى الله خيراً مُحَمَّد عزَّت على ما اجتهد فيه على الرغم من ملاحظتنا عليه.

وعلى هذا رأيتُ أن أحافظَ على الكتاب ضبطاً على نُسختِهِ الأصلية المطبوعة في حياة المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، وأن أجعلَ عليها توضيحاتٍ وتعليقات يحتاجها المثقف المعاصر، بما لا يخلُّ بالإحساس الذي أراده المصنف أن يكون في القارئ والمتلقِّي، وكذا الشعور الوقَّاد الـــذي يتدفقُ من قلب المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ إلى قلبِ القارئ الصادق حفظَهُ الله، بجسرِ عباراتِهِ المشوِّقة والصادقة.

ثم عملتُ على تخريج الأحاديث التي وردت في سياق كلام المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، وعزو الآياتِ القرآنية إلى مظانِّها من القُرآنِ، وبعـــض التعليق المطلوب. ثم جعلتُ الهوامش التي للمصنِّف كما في المطبوع، وعقَّبتُ بالرمز لها بـــ(حبيب) إشارة إلى أنَّها للمصنف وليست لي.

وأسألُ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يَمُنَّ عليَّ بالتوفيق في إنجازِ هذا العمل، وإيصالِهِ إلى القارئ بما هو أمانةٌ يريدُها المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ، وأســـألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ القبولَ عنده والرضا، إنه سميعٌ مجيب.

كَتَبَهُ عِزُّ الدِّينِ
هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيْمِ الْبَدْرَانِيُّ الْمَوْصِلِيُّ
الْمَوْصِلُ – ١٧/جُمادى الآخر/١٤٢٤هـ
١٥ / آب/ ٢٠٠٣م

[1] الجامع لأحكام القرآن: ج ٤ ص١٦٤،١٥٩. ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: مج ٣ ج ٤ ص٤٢-٤٤.



مقدمة المصنف

حَمْداً لمن أبدعَ الأكوانَ بقدرتهِ، وكرَّمَ بني آدمَ في فطرتهِ، ثم اتخذَ منهم خلائفَ في الأرضِ، وأنزلَ الشرائعَ ونصَبَ الموازينَ القِسْطَ ليومِ العرضِ، فإنْ أعطى فبفضلهِ، وإن منعَ فبعدلهِ، بيدهِ مقاليدُ الأمورِ وإليه المرجعُ والمآبُ؛ ثُمَّ صلاةً وسلاماً على صفوةِ رسلهِ وخاتمِ أنبيائهِ سيدنا ومولانا (مُحَمَّد) المبعوث بالحجَّةِ البيضاء، الحنيفيَّةِ السمحاءِ، حتَّى تبلَّجَ به صُبحُ الهداية[1]، وانجلَى ليلُ الغوايةِ، وقامتْ به الحجةُ، واتضحتِ المحجَّةُ، وسحَّتْ[2] سحائبُ فيضه العميم، وهدَى اللهُ به الناسَ إلى الصراط المستقيم، فصلَّى الله عليه وعلى آلـهِ الأطهـارِ، وصحبهِ الأخيار الذين استرشدوا برشده، وخلَفوهُ من بعده، وعلى الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، هادين مهديين، أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأولئك هم المفلحون.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه رسالةٌ دعاني لها داعي الحقِّ وأملاها عليَّ لسانُ الحقيقة، ثم اضطرَّني إلى تسطيرها الواجبُ؛ ومن كان الحقُّ شـاهدَهُ؛ والحقيقـةُ رائدَهُ؛ والواجبُ قائدَهُ؛ فحريٌّ أن تُسْمَعَ صيحتهُ وتُلَبَّى دعوتهُ.

بل أقولُ: إنَّها دعوةُ الله في كتابه الْمَجيد وصيحةُ النبيِّ وصحبهِ؛ والفقهُ وحزبه وعلماءُ الملَّة وساداتُها وأمراء الأمة وقادتُها، ثم صـوتُ الوجوب وهو خاصٌّ لا يحتمل البيان؛ ونداءُ المصلحة وهي بارزة للعيان.

فاللهَ أسألُ وبنبيهِ أَتَوَسَّلُ[3] أن يبلُغَ الصوتُ حيث يفكُّ عن عقولٍ عقالَها ويفتحُ من قلوبٍ أقفالَها ويكشفُ عن أبصارٍ غشـاوةً وعـن أفئدةٍ قسوةً وغباوةً، ثم لا يدع في الآذان وَقْراً ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾[4]..

---

[1] تَبَلَّجَ الصبحُ: أَسْفَرَ وأضَاءَ. وأَبْلَجَ الحقُّ: ظَهَرَ، ويقال: هذا أمرٌ أَبْلَجٌ أي وَاضِحٌ. يقال: الحَقُّ أَبْلَجُ، وَالْبَاطِلُ لَجْلَجٌ، وكل شيء وَضَحَ فقد ابْلاَجَّ. لسان العرب: (بلـج) ج ١ ص٤٧٨.
يريد اتضح الطريق الموصل إلى توحيد الله بإدراك الصلة به سبحانه عن طريق اتباع الرسول مُحَمَّد ﷺ والتأسي به.

[2] سحَّ الماءُ سحّاً: مرَّ على وجه الأرض.

[3] الوسيلةُ: الْمَنْزِلَةُ عند الْمَلِكِ، والدرجةُ والقُرْبَةُ. وَوَسَلَ فلانٌ إلى فلانٍ وسيلةً إذا عَمِلَ عملاً يقرب به إليه، وتوسَّل إليه بوسيلة: إذا تقرَّبَ إليه بعملٍ، أو تقرب إليه بحُرْمَةِ آصِرَةٍ تعطفهُ عليهِ. والوسيلةُ: الوصلة والقُرْبَةُ قال الله تعالى: ﴿**يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ**﴾ [الإسراء/ ٥٧]. والمرادُ أنه يدعو العقول لتفهُّم هدي الرسول مُحَمَّد ﷺ بقصد الاتباع والتأسي به قربة لله عَزَّ وَجَلَّ، فطريق التَّوَسُّلِ بالنبيِّ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ: اتخاذ منهجه وشريعته طريقاً لإدراك الصلة بالله عَزَّ وَجَلَّ. لسان العرب: (وسل) ج ١٥ ص٣٠١.

[4] الذاريات/ ٥٥.

وقد سميتُها (حَبْلُ الاعتِصَام ووجوبُ الخلافةِ في دينِ الإسلامِ) ليوافق الاسمُ مُسَمَّاهُ ويطابق اللفظ معناه، وفيها الكفاءَةُ إن شاء اللهُ لتوحيد كلمةِ الموحدينَ ولَمّ شعثِ المسلمينَ إذا ما أرادوا أن يعتصموا بحبلِ الله، ورتَّبتها على مقدمة وثلاثةِ فصولٍ وخاتمةٍ، والمقدمةُ تدور على قطبين:

القطبُ الأولُ: في سببِ تأليف هذه الرسالة وبيانِ حالِ المسلمين إجمالاً.

القطبُ الثَّاني: في الاتحادِ الإسلامي في ظلِّ الخلافةِ وتحتَ رايةِ الهلال[1].

الفصلُ الأولُ: في منشأ الخلافة الإسلامية، ويشتمل على أربعِ تَمهيداتٍ ومقصودٍ:

التمهيدُ الأولُ: في أنَّ أنبياءَ اللهِ خُلَفَاؤُهُ في الأرض.

التمهيدُ الثاني: في إثباتِ نبوَّة نبينا مُحَمَّد ﷺ .

التمهيدُ الثالث: في تحقيقِ معنى النسخِ وأنَّ شريعتهُ ﷺ ناسخةٌ لِمَا تقدَّمها من الشرائع.

التمهيد الرابع: في انَّه ﷺ خاتم الأنبياء وأنَّ في شريعتهِ الكفاءةَ لذلك.

المقصود: في أنَّ الخلافةَ الإسلاميةَ خَلَفُ النبوةِ بل النبوات وأنَّها واجبةٌ قبل كلِّ واجبٍ دينيٍّ.

الفصلُ الثَّاني: في أنَّ الخلافة الإسلامية قائمةٌ بالدولة العثمانية[2].

الفصلُ الثالث: في أنَّ دولةَ الخلافةِ الإسلامية إذا زالت بزوال الدولة العثمانية فليس في الإمكان قيام أخرى مكانَها.

الخاتِمة: في أنَّ الإنكليزَ أشدُّ الأمم عداوةً للإسلام والمسلمين.

ولَمَّا كملَ بدرُها وانتظم درُّها، وأعيدَ سبكُها، وجرت ثانية فلكُها، فبرزت كالوَرْقَاءِ من وَكْرِهَا[3]، والعذراءِ من خُدرها، التمست لها خير سماء تكون مظهرَ أبدارها، ومطلعَ أنوارها، ثم أَبْهَى جِيْدٍ تزدهي عليه فرائدُها، وتعمُّ به فوائدُها، فَزَفَفْتُهَا إلى كُفوٍ كريم، وبطل عظيم، جدير أن يكون أبا عُذْرَتِهَا وربَّ جِدَّتِهَا[4]، بل واسطةَ عقدها وحاملَ لواء حمدها. كيف لا وهو من عُرِف بقوة الشكيمةِ، ومُضَاءِ العزيْمةِ، وعلوِّ الهمَّةِ، والمفاداةِ في سبيل الأمة، توحيداً لكلمتها، وتأييداً لجامعتها، وتثبيتاً لسلامتها، وتشييداً لعرش خلافتِها، لَمّاً لشعث المسلمين، وتعزيزاً لأمر الملَّة والدين، قد حصر في ذلك آماله، وقصر عليه أعماله، حتى انَّه يتشوق إلى المنيّة، في سبيل تلك الأمنيَّة، وإني لأشهدُ، يوم أنشد: أني سمعت من فِيْهِ باركَ اللهُ للأُمةِ فيه – في عرض حديثٍ بيننا – انَّه لا يحبُّ أن يعمَّر كثيراً، وإنما له غايةٌ واحدة في الحياة الدنيا يسعَى إليها، ثم يرحِّبُ بالموت – لا فجعَ اللهُ الأمةَ بهِ– يوم يحصل عليها؛ ألا وهي: أن يرى الموحِّدين متَّحدِينَ، وبحبل الله جميعاً معتصمين، قد جمعتهم كلمةُ الدين؛ فإذا كلاهما –الدينُ وبنوهُ– في شأن رفيعٍ وعزٍّ منيعٍ. ولقد كانَ واللهِ لسانُ حالهِ أنطقَ من لسان مقالِهِ، إذ بدت خطوط التأثر على قسمات وجهه الكريم فكأنَّها سطور خُطَّتْ بمدادٍ من نور، وكلمات يقين في صحيفةِ مؤمنٍ أُوتي كتابهُ باليمينِ.

---

[1] يستعمل المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ (راية الهلال) تعبيراً عن راية الدولة الإسلامية حينذاك، حيث يرسم عليها الهلال وسطهُ نجمةٌ، وليس المرادُ غير ذلك فانتبه.

[2] هذا في زمان المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وكان نشرُ الكتاب سنة ١٣٣٤ من الهجرة – ١٩١٦ ميلادية. وألغى الإنكليزُ الخلافةَ بواسطة عملائهم سنة (١٩٢٤ ميلادية) وانفرطَ عقدُ جماعة المسلمين بانتقاض عُروة الحكم. وسيأتي البيان إن شاء الله.

[3] يقال للحمامة والذئبة ورقاءُ: والمرادُ الحمامةُ. والوَكْرُ: عشُّ الطائرِ الذي يضعُ بيضَهُ فيه حيثما كان في جبلٍ أو شجر. لسان العرب (ورق) ج ١٥ ص٢٧٦ و(وكر) ص٣٨٣.

[4] يضربُ هذا مثلاً للأمر إذا بَانَ وصرُحَ. يريد به التَّناهِي وأنه قد بلغَ الغاية فيما يصفهُ به من الخِلال. يقال: جدَّ فلانٌ في أمره؛ إذا كان ذا حقيقة وقضاء. لسان العرب (جد) ج٢ ص٢٠٣-٢٠٤.

منذُ تلكَ الساعةِ قبرتُ اليأسَ وأَهَلْتُ عليه بالتراب، وصافحتُ الأملَ ودخلتُ جنةَ نعيمه من كل باب؛ قلتُ: إنَّ أمةً يكون بين أولياءِ أمورها مَنْ يحملُ بين جوانحه مثل هذه الإحساسات المقدسة والعواطف الفاضلة والمدارك السامية إنَّها لجديرةٌ بالحياة؛ فأهلاً بالأمل يَمشي إلى جانبه النور، ولا مرحباً باليأس يتدفق من خلاله الظلام.

لكأنِّي بك وقد شاقتك الذات على ذكرى الصفات وإن لم نُحِطْ بهنَّ بياناً (وَالأُذُنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَاناً) فنقولُ:

إنَّه بطلُ الإتحاد الإسلامي، وحامل لوائه وواسطة عقده النظيم وكوكب رشده اللامع في سمائه، ومن عَبَقَتْ بنشر محامدِهِ الْمَحافلُ والْمَجامعُ، وعشقت صور مآثره ومفاخره العيونُ والمسامعُ، دولة الوزير الخطير، والْمُجاهدِ الكبير (أحمدُ جمال باشا)[1] ناظرُ البحريةِ والقائد العام للفيلق الرابع، متَّع اللهُ الأمةَ بطول بقائه، ومتَّعه بدوام اللطف به والرحمة له والأخذ بيده في سرِّه وإخفائه، ولا زالت باسمةً رغائبُه، منصورةً كتائبُه، باهرةً فعائلهُ، زاهرةً فضائلُه، ساطعاً كوكبُ إقبالهِ، مبتسماً ثغرُ آماله، في ظل الخلافة العظمى وتحت رايةِ الهلال، ما اسودَّت به أيامُ عدوّه البيضُ وابيضَّت به للأمةِ سودُ الليالي.

زففتُ إلى دولته هذه الرسالةَ ليكون واسطةَ إهدائها إلى العالَم الإسلامي رفعاً لقدرها، وتتميماً لأمرها، خدمةً لإخواني المسلمين عامَّةً، ولدولته خاصةً، اعترافاً لعظماء الأمة بِمآثرها، وتنسيباً بين الأمور ونظائرها. وما أجري إلاّ على اللهِ، به أعتصمُ، عليه أتوكلُ، إليه أنيبُ[2].

[1] أحمدُ جمالُ باشَا: ولد عام ١٢٩٠ من الهجرة في استانبول، وهو ضابطٌ في الجيش العثمانِي، وواحد من الثلاثة الذين حكَمُوا الدولةَ العثمانية؛ خلال الحربِ العالمية الأولى، انضمَّ إلى اللجنة السرية للاتحاد والترقي وهو ضابطُ رُكنٍ. أصبحَ عضواً في الإدارة العسكرية بعد حركة ١٣٢٧ هـ ثُم حاكماً إدارياً قويّاً لإحدى الولايات، ثم تقلَّدَ منصب قائد قوى الأمن في استانبول ثم وزارة الأشغال العامة، وحينما نشبت الحرب العالمية، كان جمالُ أحد المشاهير من الرجالِ ذوي النفوذ، إضافة إلى طلعت وأنور، وبعد الْمُحاولة الفاشلة لمهاجمة مصرَ خلال الحرب عيِّن حاكماً لسورية، فسحَقَ الأقلية الأرمنية وقام بإعدامات عامي ١٩١٥-١٩١٦م، ثم خدم الدولةَ بعد الحربِ حتى اغتيل من قبل الأرمن وهو راجعٌ من باريس ممثلاً للأفغان، وقد اغتاله الأرمن أثناءَ مروره بِمدينة تفليس بجمهورية (جورجيا). ينظر: صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة العثمانية: هامش ص٢٧٦-٢٧٧.
وعلى ما يبدو أن الشيخ مُحَمَّد حبيب كان يحسنُ الظنَّ به، وله عذره حينها إذ لم تكشف حقائق المؤامرة.

[2] قطعاً أن الشيخ الفاضل الفقيه العالِم مُحَمَّد حبيب العبيدي كان ميسورَ الحال غنيّاً متعفِّفاً؛ لم يكن يطلب المال؛ بل كان له من الأراضي الزراعية والأملاك الكثير، وقد أوقفَ منها الكثير لقضية فلسطين. فهو يقدِّم بِهذه المقدمة بقصدِ النصيحة وإظهار الحقيقة، ليس غير.

الْمُقَدِّمَةُ

وَهِيَ تَدُورُ عَلَى قُطْبَيْنِ؛

الْقُطْبُ الأَوَّلُ

(فِي سَبَبِ تَأْلِيْفِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَبَيَانِ حَالِ الْمُسْلِمِيْنَ إجْمَالاً)

الحياةُ أدوارٌ وأطوارٌ، ومظهر كليهما الهيئاتُ الاجتماعيةُ من الأمم والشعوب، وفي خلال ذلك يجري حكمه (قَانُونُ التَّكَامُلِ) الذي يقضي بالانتقال من حال إلى أحسن لمن قَدَّرَ الأدوارَ قدرَها وسار مع تطورات الحياة على نَهْجٍ مستقيم، ثم ليس بين دفَّتي التاريخ قرنٌ بلغَ من فرط الرُّقِيِّ في معارج الحياة ما بلغه القرن الرابع عشرَ للهجرةِ كما هو معلوم حتى لدى الجاهلين؛ فأمةٌ أغفلتْ حظَّها من ذاك القانون -قَانُونُ التَّكَامُلِ- في مثل هذا القرن- قرنُ الرُّقي الباهر- إنَّها لمنكودةُ الطالع وإنَّها لجديرةٌ أنْ لا تعدَّ في الأحياء.

سنَّةُ اللهِ في خلقه أن يدفعَ بعضُهم بعضاً، رفعاً لمنار الحق وتَهْذيباً لحواشي البشرية، تذكيراً للمقصرين من أبنائها وتخفيفاً من غلواء المعتدين. وهذا أكبرُ مضمار لتطوّر الأمم والشعوب، فمنهم السابق، ومنهم اللاحق، ثم ثالث يذهبُ ضحيةً تحت أقدامِهما، ألا وهو العاجزُ الضعيفُ.

تلك حقيقة تتجلى في كل سطر من تاريخ حياة الأمم، لا يكادُ ينكرها من له أَدنَى مُسْكَةٍ[1]. وما على من أرادَ تحقيقها عياناً إلاّ أن ينظر إلى المسلمين وما صاروا إليه في القرون الأخيرة، يقلّب في ذلك طرفَ الناقدِ البصيرِ.

ثلاثُمائة وخمسون مليوناً متدهورون في قعر مهواة مظلم، نَهْبَى المطامع وضحايا الأهواء، قصَّروا في المضمار وسبقت الأمــمُ، فكانت العقبى أن وطئت سنابكُ الذين سبقوا أعناقَ المقصرين.

أنكدُ الأممِ حظّاً أمةٌ لا تخطُّ أقدارَها بيدها، وأولئك هم المسلمون، تقاسمتهُم الأمم واستعبدتُهم الشعوبَ ثم تحكمت فيهم الأهواء، فما كان من الأمر إلاّ أنْ سَعِدَ قويٌّ بشقاء الضعيفِ.

هذه بلادُهم قضى عليها الاستعمارُ شيئاً فشيئاً، وما مثل المستعمرات إلاّ مثل السوائم، مسخرات ليس لها من الأمر شيء، وإنَّما هي ألعوبةُ الراعي ومفازةُ أوطاره، خيرها له وشرُّها لنفسها وإنَّ هذا لبلاء عظيم.

عددٌ كبيرٌ وعيشٌ حقير، تَرَى الحكومةَ الهولاندية تحكمُ ثلاثين مليوناً من المسلمين وهي لا يتجاوز عددها ستة ملايين. تَرَى دولةَ بريطانيا تستعبدُ مائة وعشرين مليوناً منهم، والأمةُ الإنكليزية لا يتجاوز عددُها الأربعين، ثم في روسيا ثلاثون مليونَ مسلمٍ يعانونَ الأهوال من

---

[1] رجلٌ ذو مُسْكَةٍ ومُسْكٍ: أي رأي وعقل يرجع إليه، وهو من تماسك الشيء أي ليس فيه ارتخاء ويكون معتدل الْخِلْقَةِ، يقال: فلان لا مُسْكَةَ له؛ أي لا عقل له. ويقال: ما بفلان مُسْكَةٌ؛ أي ما به قوةٌ ولا عقل. ويقال: فيه مُسْكَةٌ من خيرٍ؛ بالضم أي بَقِيَّةٌ. لسان العرب (مسك): ج ١٣ ص١٠٨.

دُبِّ الشمال، وفي فرنسا ما يقرب من أولئك يتجرَّعون كأس الذلِّ أمام كِبَرِ الطاووس، وكذلك البقيــةُ الباقيــة في مشــارق الأرض ومغاربِها، في كلِّ فخٍّ سربٌ من ذاك القطا ضَلَّ سبيل هداهُ.

عقدٌ منفرطٌ ولؤلؤ منثورٌ، فيا خيبةَ الأمل إذا لم ينظمهُ سلكٌ، ثم يا طول الحسرة إذا ظلَّ الشملُ رهن الشتات.

على أنَّ فاجعتهم لم تكُ مقصورةً على تخبُّطهم في أغلال الأسرِ، بل وراء ذلك ويلاتٌ وهنَّاتٌ فما شئتَ فقل، من حقــوق مغصــوبةٍ، وحريَّةٍ مسلوبةٍ، وجانبٍ مذالٍ، وكرامةٍ لم تحفظْ، حتى إنَّهم يرهقون في دينهم إرهاقاً مما لا يصبرُ عليه إلاّ ثالثُ (الأذلَّين)[1] وليس هذا محل تفصيله.

ثم الطامةُ الكبرى إنَّهم في مثل هذا الدور من تطور الأمم -دور التناهي في الرقي والتباهي بشرف الاستقلال ثم انتباه الأفكار لــذلك- تراهم من التقهقر في مثل هذه الهوَّة السحيقة الأعماق، ثم الأعجبُ من ذلك أنَّهم راضونَ بالموت وفيهم أسبابُ الحياة، إنَّها لديهم وافرةٌ ولكنهم بِها غيرُ عالِمين.

إن في هذه الرسالة كفايةَ أولئك الرُّقَّادِ، وهذا الرجاء نفسه كان الباعث لتنميق سطورها.

فإن وجدت آذاناً واعيةً وقلوباً صاغيةً فحبَّذا الأمل، ويا قرةَ العين وبشرى المستهل؛ وإلاّ فما على من لم يوقظه دويُّ المدافع وصلصــلةُ الحديد وزفيرُ النيران أن لا يستفزّه صريرُ الأقلام منعكساً على صفحات الطروسِ؛ فليمتزج هذا بذاك وصدرُ الفضاءِ أوسعُ من أنْ يَضِيْقَ عن حفظ كليهما حتى يأتي أمرُ الله.

على أن في العالَم الإسلامي اليوم هزَّةُ انتباهٍ ويقظةُ مستبصرٍ ونشاطُ متحفِّزٍ مما يُؤْذِنُ إنْ شاءَ الله بكسر القيودِ وتحطيمِ الأغلال وعودِ ذاك المجد المؤثَّلِ والشرف القديم، وإن أمامنا -معاشرَ المسلمين- مستقبلاً وضيئاً قد بدَتْ بحمد الله طلائعُ بِشْرِهِ، ومــا علينــا إلاّ أن نَثِــبَ لمصافحته ولا ندعَ الفرصة تذهبُ ضياعاً، وإنّا إنْ شاءَ اللهُ بأكثر مما نُؤَمِّلُ لظافرون.

فلا تيأسِي أيتها السطورُ الكريْمةُ! إنك وديعةٌ في ذِمَّةِ الأيام، ورُبَّ قَوْلٍ أنفذُ من صَوْلٍ.

---

[1] يشيرُ إلى قولِ الشَّاعرِ الجاهليِّ:

وَلاَ يُقِيْمُ عَلَى ضَيْمٍ يُرَادُ بِهِ … إِلاّ الأذَلاَّنِ عير الْحَيِّ وَالْوَتَدُ

هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَرْبُوطٌ بِرُمَّتِهِ … وَذَا يُشَجُّ فَلاَ يَرْثِي لَهُ أَحَدُ

(حبيب)

الْقُطْبُ الثّانِي

فِي الاتِّحَادِ الإسْلاَمِيِّ
فِي ظِلِّ الْخِلاَفَةِ وَتَحْتَ رَايَةِ الْهِلاَلِ

لكلِّ داءٍ دواءٌ وإنَّما مناطُ النجاح حذاقةُ الأساةِ في تشخيصهما، الأمراضُ الاجتماعيةُ كالأعراض الجثمانية وإنما أُساتُها أهل الغيرةِ من أبناء الأمة ومفكروها. المسلمون مرضى منذ قرون وفيهم من العلل الإجتماعية ما ينوءُ بالإحصاء، ولكن المنبعَ واحدٌ والبقيةَ فروعٌ.

إنَّ داءَ المسلمِ كونه مسلماً كما أرادَ، ودواءُه أن يكون مسلماً كما يريدُ اللهُ[1].

لا حياةَ لأهلِ كلمةِ التوحيدِ إلاّ بتوحيدِ الكلمةِ، والموتُ كلُّ الموتِ في شتاتِها، فَاتْلُ إن شئت قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[2] ثم اذكرِ الحديثَ الشريفَ: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[3].

إنَّ الدواءَ الوحيد للعالم الإسلامي أن يمثِّل أمةً شعارُها التوحيدُ ودثارُها الاتحادُ، وذلك ما يريد الله، وإن كنت في ريب من هذا فاتلُ قوله عزَّت كلمته: ﴿**اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾[4] ثم تدبر ما حواهُ من المؤكداتِ.

إنَّ ما وردَ من الآيات الكريْمة والأحاديث الشريفةِ في وجوبِ اتحادِ الأمة وتعاون أفرادها أكثرُ من أن يُحصى، وبِهَذِهِ الحكمةِ البالغة تمكَّنَ المسلمونَ في صدر الإسلام من إظهارِ الخوارق التي أدهشت العالَمَ أجمعَ يوم قلبوا الكونَ رأساً على عقب ونزعُوا بالأممِ إلى طورٍ من الحياة جديدٍ.

إن ما تضمنتهُ تلك الحكمة البالغة من أسرار السياسة ودقائق الاجتماع قد اثبتتهُ التجاربُ من قبل ومن بعدُ، ولا أثرَ بعد عين، فهذه الأمةُ الإسلامية لها على ذلك شاهد من نفسها في الطورين من حياتِها، إذ أحياها الاتحادُ في مبتداها وإذ أماتَها الشتاتُ في منتهاها، ولن تحيا حتى تعودَ على ما بدأت به، وهو السرُّ المرموزُ في قول الخليفة الأول ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاَّ بِمَا صَلُحَ

---

[1] أراد بالأول: الذي أخذتْهُ الغفلةُ وحكَّمَ عقله في إسلامه فلم يدخل الإيمان قلبَهُ، وأراد بالثاني الذي استقامَ على أمر الله بالاعتصام بِهدي الكتاب والسُّنة اعتقاداً وعملاً يرجو رحمةَ ربِّه ويخاف عذابه تائباً منيباً إلى الله.

[2] الأنفال/ ٤٦.

[3] عن النعمان بن بشير رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى هَذِهِ الأَعْوَادِ أَوْ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيْلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيْرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ وَتَرْكُهَا كُفْرٌ. وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**». قَالَ: فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ: عَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ ! قَالَ رَجُلٌ: وَمَا السَّوَادُ الأَعْظَمُ؟ فَنَادَى أَبُو أُمَامَةَ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي فِي سُورَةِ النُّورِ ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ**﴾. رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٣ ص٢٧٨ وص٣٧٥، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: كتاب الخلافة: باب لزوم الجماعة وطاعة الأئمة والنهي عن قتالهم: ج ٥ ص٢١٧-٢١٨؛ قال: رواه عبدالله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات. إنتهى. إسناده صحيح.

[4] آل عمران/ ١٠٣.

بهِ أَوَّلُهَا).

مضتْ قرونٌ، ونورُ هذه الحقيقة مطموسٌ عليه بظلماتِ الجهلِ من الأمة وهي تكابدُ بسبب ذلك ما تكابدُ من جور الليالي وعذاب الأيام، حتى قيّضَ اللهُ لها من عرَفَ الداء واهتدى إلى الدواءِ فقدَّرَ الحقيقةَ قدرَها وأخذ يسعى لتحقيق آثارِها وأولئك هم المفكرون[1].

إن الشمل الممزَّق من العالَم الإسلامي لا يمكن جمعهُ إلاّ بطريقة واحدة وهي التي شرعَها الله في ديننا لمثلِ هذه الغاية التي يتوقف على تحقيقها بقيَّة الغايات، وما هي إلاّ الخلافةُ الإسلاميةُ.

ولكن ذلك متوقفٌ على معرفة المسلمين كافةً مكان الخلافة من الدين، وأنَّها فيه بِمثابة القلب الذي لا تتمُّ الحياة للجسد بدونه. وهذه الرسالةُ كافلةٌ بأداء هذا الواجب.

إنَّ اليومَ الذي يعلمُ المسلمُ بوجوب اتحاده مع أخيه المسلم مهما بَعُدَتْ بينهما الشُّقَّةُ، وبوجوب التضحية في سبيلِ رابطة ذاك الاتحاد أعني الخلافة الإسلامية، ثم يعمل بمقتضى علمه انَّه لَيومُ الذي يُثْبِتُ فيه المسلمُ انَّه قد قامَ بأول واجب دِيني وإنه لَيومُ الذي تُحفظ فيه بيضةُ الإسلام، ويعزُّ المسلمون. والذي يملأُ القلبَ جذلاً وابتهاجاً أنَّا– معاشرَ المسلمين– قد صافحنا فَجْرَ ذاك اليوم السعيدِ، وما بعدَ انفلاقِ الفجر إلاّ تبلجُ الأضواء وتمزيقُ حُجُبِ الظلماء ثم جريانُ الشمس في كبد السماء، فأهلاً بالنور، وحبذا الأمل يسطعُ ضوءُه من أُفق الحبور.

إنَّ فكرةَ الإتحاد الإسلامي في ظل الخلافة وتحت راية الهلال أمرٌ واقع؛ لأنَّها جزءٌ من الدين–يرشدك إلى ذلك أصوات الخطباء على منابرِ التبليغ في مشارق الأرض ومغارِبها أيامَ الجمعة وفي الأعياد–فمن شَكَّ في المسلمين إنَّهم موحدون جاز له الشكُّ في إنَّهم متحدون، فنحنُ لا ندعوهم إلى الاتحاد لأنه من قبيل تحصيل الحاصل، وإنَّما ندعوهم إلى الالتفات إلى ذلك، والفرق بين الأمرين كالفرق بين ما قُصد أولاً وبالذات، وما قُصد ثانياً وبالعرض. مثالُ ذلك: أنكَ تقفُ أمام المرآة وينطبعُ رسمكَ فيها، لكنك غافلٌ عن ذلك، فلا ترى نفسك ولا تعرف ما عسى أن يكون قد طرأ على زيِّكَ من زيادة أو نقصان، ولو لاَحَظْتَ المرآة قصداً لتمَّت الغاية المطلوبة من الوقوف أمامها.

فنحنُ لا نريدُ من الدعوة إلىالاتحاد الإسلامي إلاّ ملاحظته قصداً لنحصل منه على الفائدة التي فقدناها بسببِ الغفلةِ وسوءِ التدبر. ومثلُ هذا لا يحتاجُ إلى كبير عناء: إنَّ اللهَ قد مهَّدَ لنا هذا الوطاء في الدينِ وإنَّها لَسُنَّةٌ لا يعوزُها إلاّ الانتباهُ.

وأَمَّا الفائدةُ التي نتطلبها من الاتحاد الإسلامي فإنَّها لا تخصُّ المسلمين فقط بل تعمُّ طبقات البشر كافة، فالعمل على تلك الفكرة خدمة للإنسانية وأبنائها، لا خطر عليهما كما يزعم بعضُ أرباب الغايات الفاسدة حتى ربَّما موَّهُوا على بعض البسطاءِ أنَّ فيه خطراً حتى علينا

---

[1] هم رجال حزب الاتحاد والترقي: من الأحزاب السياسية العثمانية ومن أراد تفصيل ذلك فليرجع إلى رسالة (صدى الحقيقة) تعريب الخطب التي ألقيتها في العاصمة إذ كنت مندوباً في البعثة العلمية. (حبيب).

قلتُ: يتكلم الشيخ العبيدي رَحِمَهُ اللهُ وهو يحسنُ الظنَّ بحزب الاتحاد والترقي والثقة بمفكِّريه على حدِّ تعبيره. حيث أنه يستمدُّ الثقة من إذن الإمام أمير المؤمنين المتمثل بالخليفة العثمانِي: وحيث كانت شعاراتُهم في ظاهرها إصلاحية.. وإلا فالشيخ صريحٌ بِهويته السياسية وعقيدته الإسلامية بوحدة بلاد المسلمين تحت راية الخلافة وتطبيق شرع الإسلام دين الله الحق. هكذا بدا لي الحال والله أعلم.

نحن معاشر المسلمين!!

ألاَ ليثقنَّ صرعى الطيش وسكارى الغرور، ثم ليعلمنَّ شهداء الجهل وأُسَارَى التقليد أنَّ الإنسانية لن تستريح ما دام المسلمون في نكدٍ من العيش. ندَّعي هذا من حيث يوافقنا عليه كلُّ مُفَكِّرٍ مُنْصِفٍ ثم نثبتهُ من وجوه فنقول:

أوَّلاً: إنَّ المدنيَّةَ الحاضرةَ قد وسَّعت نطاق الارتباط بين الأمم والشعوب حتى أصبحوا وأصبحت الكرةُ أشبه بعائلة كبيرة تسكنُ داراً واحدة، ومما لا مرية فيه أنَّ حُسْنَ انتظام العائلة إنَّما يتمُّ بتوزيع الأعمال بين أفرادها، والمسلمون قسمٌ كبير من هذهِ الأفراد، فبقاؤهم معطَّلين عن العمل بسبب تقهقرهم وانحطاطهم نقصٌ فيما يجب لتلك العائلة الكبيرة من حُسن الإنتظام، إن حرمان البشرية من عمل ثلاثِمائة وخمسين مليوناً من صميمِ أبنائها جناية على البشرية كبرى.

ثانياً: إنَّ فرطَ الارتباط بين الأمم والشعوب قد جعلهم بمثابة الأعضاء تمثل جسماً واحداً، والأمة الإسلامية عضو في هذا الجسم كبير، فإبقاؤهُ عليلاً يشكو الآلام والأسقام مما يشوِّشُ على المجموع لذَّة الحياة بصورة طبيعية وفقاً لما يقتضيه (عِلْمُ وَظَائِفِ الأَعْضَاءِ).

ثالثاً: إنَّ طمعَ القويِّ بالضعيف رجاءَ أنْ يَسْعَدَ بشقائه غريزة في البشر، فما دُمنا معاشرَ المسلمين ضِعافاً فإنما نحنُ فتنةٌ يشقى الطامعُ فينا ولا يدعُنا نَسْعَدُ، ثم من بين هذا وذاك يعلو أنين الإنسانية في شكواها، فالعمل على إضعافنا مدعاةٌ لاضطرابِ الإنسانية وتشويشٌ لمسراها. إن ابتلاع ثلاثمائة وخمسين مليوناً ليس بالأمر اليسير.

رابعاً: إنَّ سياسةَ العصرِ قائمةٌ على حفظ التوازن، فما دام العالم الإسلامي متزلزل الأركان فلن يستقيم للسياسة قسطاس. ومَنْ دقَّق تاريخ الحروب بنظر نافذ رأى أكثرَها قد استعرت نارهُ من مثل هذا الشَّرر، حتى أنَّ هذه الحربَ العامة لو كان للمسلمينَ منعةٌ وكان وزنُهم في كفَّة السياسة راجحاً لما انفجرَ بركانُها واستعرتْ نيرانُها حتى تألَّم لويلاتِها قلب الإنسانية ونَجَمَ عنها من الخسائر ما لا يمكن تلافيه بأقلَّ من مائتي عام.

خامساً: إنَّ الانفجارَ نتيجةُ التضييق، وللمسلمين عدد لا يستهانُ به، والليالي حُبالى يَلِدْنَ كلَّ عجيب، فكيف يؤمَنُ الخطرُ على المجتمع الإنساني إذا اضطرت المسلمين العواملُ فأعادَ التاريخُ نفسه وضربَ الزمانُ أُمة بأخرى فإذا أنحاءُ البسيطةِ كرةٌ من نارٍ، وإذا للكون خريطة أخرى رسمت بالأحمر القاني من دموع الإنسانية بدلاً من الْمِدَادِ.

من زعم أن في الإمكان محوَ العالَم الإسلامي من الوجود دون أن تُمْحَى خريطة الوجود –ما دام للمسلمين دين مرتكز على السياسة[1]– وخلافة مرتكزة على قواعد الدين– فقد ظنَّ غلطاً وَرَكِبَ شططاً.

إنَّ الاتحاد الإسلامي يدرأُ في نحر هاتيك المخاطر ويحفظُ الإنسانية من مثل هذه الويلات ثم يزيد المدنية الأوربية رونقاً وبَهاءً كما كان منبثق أنوارها في عصور الظلم والظلمات مما لا ينكرهُ من له أدنَى إلمام بتاريخ مدنيات الأمم في القرون الخالية.

[1] سيتضح لك هذا من المباحث التي ستمرُّ بك تباعاً. (حبيب).

فيا سبحانَ الله! أنحفظُ الإنسانيةَ بالأمس ونشيد أركانَ المدنية ثم نكون اليومَ خطراً عليهما؟

ولكن هي الغاياتُ الفاسدة والمقاصد الخبيثة تحمل عديمي المروءة على تشويه الحقائقِ وارتكاب كلِّ فَظِيعَةٍ في مثل ذاك السبيل.

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

فِي مَنْشَأ الْخِلاَفَةِ الإِسْلاَمِيَّةِ

وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَرْبَعِ تَمْهِيْدَاتٍ؛ وَمَقْصُودُ:

التَّمْهِيْدُ الأَوَّلُ

فِي أَنَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ خُلَفَاؤُهُ فِي الأَرْضِ

للإنسان أربعةُ أدوارٍ: دورُ العدم، دورُ الإيجادِ، دورُ الإرشادِ، دورُ الجزاء -أي دور العقاب والثواب-. وها أنتَ تجدُها على هذا الترتيب متتابعةً متناسقة في سورة الإنسان من كتابِ اللهِ الْمَجيدِ.

فأمَّا **دَوْرُ الْعَدَمِ** يوم لم يعطس به أنف الوجود، فذلك قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾**[١] فالإنسان بالإضافة إلى ذلك الحين[٢] لا يجوز عليه الحكم بوجه من الوجوه؛ لأنه عدم؛ ولأنَّ النفسَ لا تتوجه نحو الْمَجهول المطلق-كما يعرفهُ المنطقيُّ- أجلُّ مبلغِ العلمِ بالإنسان يومئذٍ انَّه كان تُراباً، حتى تعلَّقت إرادةُ اللهِ بخلقه فكان إنساناً، كما قال جلَّت حكمتُه: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾**[٣] ولكن كونه تراباً غير كونه إنساناً، فهو من هذه الحيثية لم يكن شيئاً مذكوراً.

وأما **دَوْرُ الإِيْجَادِ** وحفظِ بقاء النوع فذلك قوله جلَّ ثناؤهُ: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾**[٤] فأوجده إذ سوَّاهُ من تراب ونفخ فيه من روحه كما قال: **﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[٥] ثم حفظ نوعه إذ خلق له زوجه وجعله نُطَفاً تنتقلُ من الأصلاب إلى الأرحامِ كما قال عَزَّت كلمتهُ: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[٦].

---

[١] الإنسان/ ١.

[٢] أما تخصيصُ الإنسان بآدمَ والحين بأربعين سنة كان فيها مصوَّراً من طين، أو إبقاء الإنسان على إطلاقه ثم تخصيص الحين بمدَّة الحمل، فكل ذلك مجازٌ لم تتعذَّر معه الحقيقة فندعهُ لمرتكبيه. (حبيب).

[٣] الروم/ ٢٠.

[٤] الإنسان/ ٢.

[٥] ص/٧١-٧٢.

[٦] الروم/ ٢١.

وتشيرُ هذه الآية إلى (بقاءِ الأنسب) إذ بالتناسلِ يتمُّ بقاء الإنسان ولا مِريَةَ أن كونه إنساناً أنسبُ من كونه تراباً وكذلك تشير إلى سرِّ تشكيل العائلات بجعل المودَّة والرحمة بين الزوجين.

ومن تدبُّر مغامز هذه الآيات الكريمة من قوله: **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾** [الروم/ ١٤]، إلى قوله: **﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**

ولكن تكوينه من نطفةٍ أمْشَاجٍ[1] جعله مجمعاً للأضدادِ، فبينما تراهُ يرفرف في عالَم الملكوت يزاحمُ أبناء النورِ في سَبَحَاتِ الْجَــلاَلِ. إذا به كَسِيْرُ الجناح يَتَخَبَّطُ في الحضيض الأسفل يغالبُ أبناءَ النار في قبول الرذائل وبَثِّ الشرور. وهذه القابلية فيه هي التي كانت منــاطَ الابتلاء وهي التي جعلتهُ قرينَ الشيطان وعبد الرحمن في آن واحدٍ، فمن غلبت مَلَكِيَّتُهُ على عِفْرِيْتِيَّتِهِ فقد فازَ، ومن تغلبت فيه الثانيةُ على الأولى كان لنفسه من الظالمين.

لكن الإنسان لو تخلَّى ونفسه لكان إلى الشرِّ أقرب منه إلى الخير[2] والله لا يريد بعباده شرّاً[3] فنجمَ عن هذا وذاك بعثةُ الرسُل صــلوات الله عليهم وجعلهم خلائفَ في الأرض ليكبَحُوا من جماحِ الشرِّ الذي لولاهم لَمَا صدر عن الإنسان سواه. ومن هنا أتى الدور الثالــث الذي وَسَمْنَاهُ بدور الإرشاد.

وأما **دَوْرُ الإرْشَادِ** فذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[4].

عرفتَ غرائز البشرِ في فطرته وأنه محتاجٌ إلى مُرشدٍ يقوِّمُ من أوْدِهِ وهادٍ يدعوه إلى سواءِ السبيل، فما هي الطريقة الموصِلَةُ إلى ذلك؟

إنَّ الإنسانَ الذي لو تخلى ونفسه لغلبت عفريتيته على مَلَكِيَّتِهِ فكان كله شراً ليس في وسعه أن يكون بعمومه مظهراً للخطاب الإلهــي، والوحي الْمَلَكِيّ، والحكمة تقضي بتجانس ما بين مدعوّ وداعيه، ومهديّ وهاديه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُــلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**﴾[5] والله أعلمُ حيث يجعلُ رسالته، ويختصُّ برحمته من يشاء، فاختارَ من بني الإنسان أفــذاذاً في وجهتــهم الْمَلَكِيَّةِ فَضْلٌ على وجهتهم العفريتية فخصَّهم بالعصمة وأهَّلَهُمْ لِما يريد فكانوا خلفاءَهُ في أرضه ورسلَهُ الكرام بينه وبين عباده رحمةً منهُ وفضلاً والله ذو الفضل العظيم.

كذلك هَدى الله عبادَه السبيلَ: فبعث فيهم رُسلاً من أنفسهم يَتْلُونَ عليهم آياته ويعلِّمونَهم الكتاب والحكمة، فصدعوا بما أُمروا وبلّغوا ما أُنزل إليهم من شرائع الله وأحكامه وكانوا خلفاءه في تنفيذها كما صرَّح بذلك في غير موضع من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿**يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**﴾[6] فجعل الحكم بين الناس بالحق من قبل داود عليه السلام مرتباً على جعله خليفة في الأرض ثم قابل ذلك باتباع الهوى وعدَّه ضلالاً عن سبيله. وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَــالَ رَبُّــكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّــي**

[الروم/ ٢٧] وما حوته من دساتير النَّشأتَين وفلسفة حياتِهما مع التعرض لجلالة كُنْهِ الألوهية بأوجزِ عبارة وأدقِّ إشارة خرَّ أمام عظمة الله ساجداً وأيقنَ أن هذا القرآنَ منَزَّل مــن لدُن حكيم خبير. (حبيب).

[1] مفردُ مَشِيجٍ كأيتَامٍ ويَتِيمٍ، ومعناه الْخَلِيْطُ، والنطفةُ مختلطةٌ من عناصر متضادَّة بين بارد رطبٍ ويابس حار كالماءِ والنار، وبين لطيفٍ وكثيف كالتُّراب والهواء، وهذه الأربعةُ كــذلك مركَّبات غير بسائط كما عُرفَ في محله ثم كل منها يريدُ مفعولَهُ ضرورة، إن الماهيات لا تنفكُّ عن طبائعها. ومن ثَمَّةَ كان الإنسانُ ابن التطوُّر قابلاً لأية حالة تَرِدُ عليه أو تصدرُ عنه ومن هنا كان مجمعُ الأضداد ومن هنا أتَى الابتلاء في قوله: ﴿**نَبْتَلِيْه**﴾ أما أن المراد من ﴿**نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾ اختلاطُ ماء الرجلِ بماء المرأةِ فذاك رأيٌ ندعهُ لقائليه.

[2] بدليل أنك ترى العُصَاة أكثر من الطائعين، وأهل الإيمان أقل من الكافرين، والمؤمنون يوم القيامة كنقطة بيضاء في شعر جلد ثور أسود كما ورد في الأثر. هذا مع إرسال الرسل وإنزال الكتب ونشر نور الإرشاد وإقامة الحدود بين العباد. فكيف لو تخلى الإنسان ونفسه ملقى زمامه على الغارب؟ (حبيب).

[3] لا يفهم منه وجوبُ رعاية الأصلح للعبد على الله كما ذهبَ إليه المعتزلةُ. (حبيب).

[4] الإنسان/ ٣.

[5] الأنعام/ ٩.

[6] ص/ ٢٦.

أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1]. قال في الجلالين عند قوله: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، وقال عند قوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ من المصلحة في استخلاف آدم وأن في ذريته المطيع والعاصي فيظهرُ العدلُ بينهم.

ومن أمعَنَ النظرَ فيما قصَّهُ الله علينا من الْمُحاورة بينه وبين ملائكته في آدمَ واستخلافه من قولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ إلى قوله: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[2] انتبه إلى أسرار كثيرة ومغامز غير يسيرة مما يعرِّفه عظمة النوع الإنساني، وتقلُّبه في تصاريف الحياة، ثم علوّ شأن الاستخلاف فيه من وجوه شتى، ولكنا نكتفي من التَّنبيهِ على ذلك بمجرد استلفاتِ الأنظار إليه خشية الأطناب.

وصفوةُ القولِ إنَّ أنبياءَ الله خلفاؤُه في أرضهِ يهدون عبادَهُ السبيلَ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها، وهكذا كان الإنسان إمّا شاكراً وإمَّا كفوراً.

ولكنَّ وجودَ الْمُحسنِ والمسيء بعدَ قيامِ الحجة واتضاحِ الْمَحجَّة يقضي بالثواب لمن أحسنَ والعقاب لمن أساءَ رَوْمَ التمييز بينهما قضاءً لواجبِ العدل واستبقاءً لحكمة الفصل، إذ لولا الوعد والوعيد لَقَصَّرَ المحسنُ وَلَجَّ المسيءُ فاختلَّ النظامُ وضاعَ المقصودُ وكان الأمرُ فُرُطاً. ومن هنا تكوَّن الدورُ الرابعُ: دورُ العقابِ والثواب.

وأما **دَوْرُ الْعِقَابِ وَالثَّوَابِ** فهو منصوصٌ عليه بقوله سُبحانه: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاً وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً. إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً**﴾[3] وذلك بعد قوله عزَّ اسمهُ: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾[4].

فآيةُ الثواب تخصُّ الشاكرَ، وآيةُ العقاب تخصُّ الكافرَ، ولكن كِلا الأمرين راجعٌ إلى الدارِ الآخرةِ؛ لأن ما ترتَّبا عليه عائدٌ لذاتهِ تعالى. وهنا إيضاحُ لا بدَّ من التنبيهِ عليه فنقولُ:

مناطُ كلٍّ من الثواب والعقاب هي الأعمالُ التي رسمت لها الشرائعُ حدوداً في التكليف، وهي بهذا الاعتبار على قسمين: ما كانَ حقّاً لله علىعباده، وما كان حقّاً لهم أزاء بعضهم بعض، فالأول: عبارةٌ عن العباداتِ إجمالاً، والثاني: عبارةٌ عن المعاملاتِ كذلك، وكلاهُما حدودُ الله وليس في الشرائع والأديان وراءَ ذلك وراء. فأما **حُقُوقُ الله** فما يترتب عليها من الثواب والعقاب مؤجلٌ ليوم البعث والحساب، وفيها المعجلُ في هذه الدار. وأما **حُقُوقُ الْعِبَادِ** بعضهم إزاءَ بعضٍ فهي قضاء معجَّلٌ ثم حسابٌ مؤجَّل، وهي التي تسمى حُقوقاً في الدنيا، وتبعات في الآخرة، فيحسمها القضاء هنا، ولا يغفرها اللهُ هناك إلاّ أن يعوض من عنده كما في الحديث الشريف[5].

فإذا تَمهَّد هذا وَجَبَ أنْ يكون في الملَّة مَن يقومُ بتنفيذ تلك الأحكام المعجلة من قسمي العبادات والمعاملات، وإلاّ تعطَّل كلُّ هذه وكثيرٌ من تلك، وليس الدينُ إلاّ عبارةً عنهما، فلا يبقى حينئذ من الشرع إلاّ اسمه ومن الدين إلاّ رسمهُ، وتذهب الحكمةُ من بعثة الرسل

[1] البقرة/ ٣٠.
[2] البقرة/ ٣٣.
[3] الإنسان/ ٤-٥.
[4] الإنسان/ ٣.
[5] حديث المفلس.

وسنِّ الشرائع سُدىً ويفقد الإنسان دَورين من أدوارهِ الأربعة، دور الإرشاد ودور الجزاء، فيرجعُ القهقري إلى دوره الابتدائي –أعني دورَ الإيجاد– ومن هنا لا يلبث أن يصبح هُمْلاً يتخبطُ في دَيَاجِرِ غَيِّهِ[1] وقد غلبت عليه غرائزُه وتحكَّمتْ فيه أهواؤهُ؛ فلا تزال شرورهُ

تتفاقم حتى يعودَ كلُّهُ شرّاً يأكلُ بعضه بعضاً وما عُقبى مثل هاتيك الشرور إلاّ الفناءُ، فربَّما حقَّت عليه الكلمة فإذا هو راجعٌ إلى دوره الأول: ﴿**لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً**﴾.

فمناطُ حفظِ الشرائع والأديان ثم بقاءِ الإنسان إنساناً إنَّما هو خلائفُ الله في أرضه؛ وما خلفاؤه فيها غير أنبيائهِ الذين يأتون بالناموس الأكبر من التعاليمِ الإلهية، فيضعون الأسسَ ويبثُّون النورَ ويهذبونَ من حواشي البشرية ما لو تُرِكَ أبناؤُها وإياهُ لظلُّوا في طغيانهم يعمهون.

[1] الدَّيَاجِيْرُ: جمعُ دَيْجُورٍ، وهو الظلامُ؛ والدَّيْجُورُ: الظلمةُ، ووَصَفُوا به فقالوا: لَيْلٌ دَيْجُورٌ وليلةٌ دَيْجُورٌ ودَيْجُورٌ مظلمة. ودِيْمةٌ ديجورٌ: مظلمةٌ بِما تحملهُ من الماء، وفي كلامِ عليٍّ عليه السلام: تغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار. لسان العرب: (دجر)ج٤ ص٢٩٣.

التَّمْهِيْدُ الثَّانِي

فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّد ﷺ

عرفتَ مما مرَّ بك في التمهيد الأول أنَّ أنبياءَ الله خلفاؤه في الأرض فنقولُ: إنَّ من جملة أنبيائه مُحَمَّداً ﷺ وهذه الدعوى تثبت من طرقٍ متعدِّدةٍ ووجوه شتى، ولكنا نكتفي من ذلك بأمرين إليهما ينتهي كلُّ برهان: التواترُ والقرآنُ.

أما **التَّوَاتُرُ**: فما زالت الأجيال تنقلُ عن الأجيال منذُ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن انَّه ظهرَ في بطحاءِ مكَّةَ رجلٌ من بني هاشم يدعى مُحَمَّد بْنَ عَبْدِالله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب فادَّعى النبوةَ وأنكرَ عليه قومهُ، ثم ما زالَ مُثابراً على دعواهُ يعضِّدُها بالآيات الباهرة والمعجزات القاهرة حتى ضربَ على أفواه المنكرين لجامَ الإفحامِ والإلزامِ.

رُبِّيَ في قومه يتيماً وكبر فيهم فقيراً وكان أميّاً لا يعرف ما العلم وما الكتابة كما وصفَهُ القرآنُ بكل ذلك، فقال: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى**﴾[1] وقال: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**﴾[2] ولو لم يكن متصفاً بهذه الأوصافِ لَمَا أمكنهُ أن يَجْهَرَ بها في قومه على لسانِ القرآنِ الذي كان يتحدَّاهُم به على سبيل الإعجاز.

ولا ينكرُ من له أدنَى مسكةٍ من تَعَقُّلٍ أنَّ السلاح في معتركِ الحياة لا يكادُ يعدو هذه الثلاث: العلمُ؛ والمالُ؛ والرجالُ. ومن كان أُمّيّاً، فقيراً، يتيماً في آنٍ واحد فهو فاقدٌ لها طبعاً؛ فكيف تَسَنَّى لِمُحَمَّد ﷺ وهو أعزلٌ من كلها أن يُلقي نفسه في أعظم مضماركافحَ به العالَمُ أجمع من كتابيٍّ ووثنيٍّ ودهريٍّ معطلٍ، يدعوهم إلى أثقلِ شيءٍ على النفوس، ألا وهو تغييرُ الأديان المألوفةِ والمعتقداتِ الراسخةِ والتقاليدِ الموروثةِ والعاداتِ المتَّبعةِ، ثم في مقدمة الجمع بارَزَ قومَهُ الذين نشأَ فيهم يتيماً مُعدماً يُبْعَدُ أنْ يَرَوْهُ من بينهم أهلاً لذاك الأمرِ الخطيرِ، وفيهم أولُوا المنعةِ والقوةِ والأنفةِ والكبرياءِ كما قالوا: ﴿**لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[3] هذا وأشدُّ الناس خصاماً له وتألُّباً عليه أقربُهم إليه نسَباً وأمسُّهم به رَحِماً أولئك عشيرته الأقربون وذَوُو قرابته الأدنَون.

أما هو ﷺ فقد صَبَرَ على كل أذى وأغضى على القذى، لم يُثْنِ من عَنَانِ عَزْمِهِ[4] ثانٍ على تفنُّن القوم في التماس وسائل الصدّ له عمَّا كان يريدُ من وعدٍ ووعيدٍ، فلم يؤثر عليه شيءٌ من ذلك، لا أطمعته رغبةٌ ولا استفزَّته رهبةٌ، حتى ولا عهدَ الصحيفة ولا يوم تآمروا على قتله؛ بل كان يلقى كل كارثة تدهمه بثبات جأش ومتانة عزم وحسن صبر، ثم يقول: «**لَوْ وَضَعُوا الْشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي**

---

[1] الضحى/ ٦-٨.

[2] الأعراف/ ١٥٦-١٥٧.

[3] الزخرف/ ٣١. يريدون الوليد بن المغيرة من مكة وعمرو بن مسعود الثقفي من الطائف. (حبيب).

[4] عَنَانُ: جمع العانَّةُ والعَنَانَةُ: السحابُ. فأعنانُ: النواحي. وفي الحديث: «**مَرَّتْ سَحَابَةٌ فَقَالَ** ﷺ: **هَلْ تَدْرُونَ مَا اسْمُ هَذِهِ؟ قَالُوا: هَذِهِ السَّحَابُ، قَالَ: وَالْمُزْنُ قَالُواْ: وَالْمُزْنُ. قَالَ: وَالْعَنَانُ. قَالُواْ: وَالْعَنَانُ**». وَقِيْلَ: والْعَنَانُ الَّتِي تُمْسِكُ الْمَاءَ. لسان العرب: (عنن): ج ٩ ص٤٤٠.

شِمَالِي مَا رَجَعْتُ عَنْ هَذَا الأَمْرِ..».[1]

وكذلك كانَ، حتى جاء نصرُ اللهِ والفتحُ وغَدَا الناس يدخلون في دين اللهِ أفواجاً.

فلولا أنَّه مؤيَّدٌ بنفحةٍ قُدسيَّةٍ وناموسٍ إلهيٍّ لَمَا أمكنه اقتحامُ كل هاتيك العقبات حتى صرع مبارزيه وهو أعزلُ وخرج ظافراً من مثـل ذاك المِضْمَارِ.

كانت العربُ عروقاً لا تلتوي فَلْوَاهَا[2]، وكانت الغياهبُ مدلهمَّةً فكشف دُجَاها، كَسَرَ الأصنامَ بالرغم عن حُفرائها، وما حفراؤُها إلاّ أقوياءُ أشداءُ، وما هي في معتقدهم إلاّ آلهةٌ.

ذلَّ لهُ أصحابُ التوراةِ، وارتعدت منه فرائضُ أهلِ الإنجيلِ، وفيهم نخوةُ السبقِ عليهِ، والأمرُ لهم مُمَهَّدٌ، والقلوبُ عليهم غيرُ منكرةٍ.

فَاوَضَ النجاشيَّ، وأنذرَ كِسرى، وتوعَّدَ قيصرَ، وهم دعائمُ الشرقِ وأوتادُ جبروته، ثم استقامَ لمن استقامَ له، وثلَّ عروشاً ودوَّخ ممالـك من آخرين.

نطقَ بالحكمة وجاءَ بالنورِ وأوضحَ مكارمَ الأخلاقِ، ووضع شرائع، وسنَّ أحكاماً في ديار تَقْطُرُ جهلاً وتسيل ضلالاً وتبرق ظلماً وتمطر ظلاماً، ثم جمع الكلمة ولَمَّ الشمل وألَّف بين جموع متناحرة وقلوبٍ متنافرة وآراء متباينةٍ، فأوجد قوّةً عن ضعف، ومنعةً عن ذلّ، وشادَ مُلكاً[3] من غير أنقاضٍ وإنما أقام دَعَائِمَهُ على بقايا أُمةٍ كانت مبعثرةَ الأشلاءِ.

غَيَّرَ خريطةَ الوجودِ وقَلَبَ الكونَ رأساً على عقبٍ، وبَدَّلَ الأرضَ غير الأرضِ، ولا مُعِيْنَ لهُ إلاّ الصبر، ولا خَدِيْنَ إلاّ العزم[4]. حتى أقرَّ له جاحدوه ونصرَهُ معاندُوه وعضدَهُ أضدادهُ وآزرَهُ أعداؤهُ، فوسَّع النطاق، ومدَّ في السبب وضرب من أدبر بمن أقبل، ووجَّه الأعنَّةَ نحو كلِّ صوبٍ، فإذا صِيْتُهُ طائرٌ، وإذا نورهُ منتشرٌ في جميع الأنحاء.

فَعَلَ كلَّ هذا وهو أُمِّيٌّ، فقيرٌ، يتيمٌ.

فسُبْحَانَ اللهِ هل فوق ذلك من دليل تثبت به نبوةُ مُحَمَّد ﷺ؟ أم هل فوق تاريخ حياته هذا من معجزةٍ تنهضُ حجَّة لصدقهِ فيما ادَّعـاه على كَرِّ الليالي ومَرِّ الأيام؟

بل نقولُ: إن مجردَ ثباتهِ على ما عاناهُ في سبيل دعواه من فَرْطِ التحزُّبِ عليه والإيذاء له والإيقاع به معجزةٌ له، إذ لم يَستفزَّهُ وعيدٌ مـع فقدِ الناصرِ، ولا وعدٌ مع وجودِ الفاقةِ، فلولا انَّه مؤيدٌ بروح من الله لما ثبتَ في موقف يستحيلُ على الإنسان عادةً أن تثبتَ فيه قدماهُ. وإنَّها لحقيقةٌ جديرةٌ بالتدبر والاستبصار، ثم تصريحُ القرآن بها على سبيل الخطاب معه بذلك أجدرُ، فَاتْلُ إن شئتَ قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ**

---

[1] الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: ج ٢ ص٧. ورواه البيهقي في دلائل النبوة: ج ٢ ص١٨٧.

[2] الفُلُوُّ: الْمُهْرُ إذا بلغَ سنةً. وقيل: هو العظيمُ من أولاد ذات الحافر، أو العَسْرُ الذي لم يُرَضْ. لسان العرب (فلو) ج ١٠ ص٣٢٩.

[3] دولةً ذاتَ سيادةٍ وسُلطان، دولةً يسودُها العدلُ ويحكمُها الشَّرعُ في عصرِ النبيِّ ﷺ وعصر بعده بإذنِ الله مُمَثلاً بسلطان الأمة أي إرادتِها الإسلامَ عقيدةً وعملاً.

[4] خَدَنَ: الْخِدْنُ وَالْخَدِيْنُ: الصديقُ، وفي الْمُحكم: الصاحبُ الْمُحَدِّثُ؛ والجمعُ أَخْدَانُ وَخُدَنَاءُ. ومعناه الذي يُخَادِنُكَ فيكون معك في كل أمرٍ ظاهرٍ وباطنٍ. لسان العرب.

أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[1].

بَلْ نَقُولُ: إنَّ نَجَاتَهُ من مخالبِ القوم إذ لم يتمكنوا من قتلهِ واغتيالهِ، مع فَرْطِ حرصهم على ذلك وتكرار التصدي له والمؤامرة فيه، معجزةٌ من معجزات نبوته إذ لم تكن لديه قوةٌ تمنعهُ ولا مال يفتدي به، والأسبابُ التي تمكن أعداءَه مما أرادوا أكثر مما كانوا يريدون، فليت شِعري ما الذي حال بين القوم وبين ما كانوا يشتهون؟ وإذا لم يكن الحائل هو ذاك الناموس الأكبر فماذا عسى أن يكون؟ ثم ها هو القرآن قد جهر بهاتيك الحقائق على مَسمعٍ من القوم فقال: **﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الأَرْضِ﴾** أي يقتلونك: **﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾**[2]. وقال: **﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ﴾**[3].

قد يقالُ: هذا التاريخُ بين أيدينا يخبرُنا بوجود نوابغ ظهر على يدهم ما عجزَ عن الإتيان بمثله أبناءُ عصرهم، فهل نقولُ فيهم ما تقولونَ في مُحَمَّد ﷺ؟ وأيُّ فرق بينهما؟

فنقولُ: أيَّ النوابغ تعنون؟ إنَّ التاريخ الذي بين أيدِيكم هو بين أيدينا كذلك، فَهَلُمُّواْ نَتَحَاكَمُ لديه: إنَّ ميزان الأعمالِ ما يترتبُ عليها من الآثار، فأرونا رجلاً كان لعمله ما كان لأعمال مُحَمَّد ﷺ فقل فيه ما قلنا فيه. أيُّ رجلٍ كمُحَمَّد ﷺ تركَ في العالم دَوِيّاً اهتزَّ له جانباهُ، ثم أسَّسَ على تلك الدعائم بنياناً لم يزدْهُ كرُّ العصورِ إلاّ رصانةً وتثبيتاً؟

أَجَلْ: نرى نوابغ في التاريخ ذوي أعمال كبيرة، ثم نراهُم وأعمالهم كالظل والشاخص ما لبثت أن زالت بزوالهم، أما مُحَمَّد ﷺ وأعماله فكما قال الله تعالى فيما أنزل إليه: **﴿وَمَا مُحَمَّد إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَائِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً﴾**[4] وبهذه الآية الكريمة ثابَ إلى أصحابه رُشدُهم يوم توفَّاهُ الله إليه فأخذَتْهم الحيرةُ واستولت عليهم الدهشةُ حتى قام فيهم أبو بكرٍ ﷺ خطيباً فذكَّرهم بها ثم قال: (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ رَبَّ مُحَمَّد فَإِنَّ رَبَّ مُحَمَّد حَيٌّ لاَ يَمُوْتُ)[5] وها أننا نرى أعمال مُحَمَّد ﷺ حيَّةً يقدِّسها ألوفُ الألوف في مشارق الأرض ومغاربها ويهتدون بهداهُ فيها، وهو ميتٌ ضجيعُ التراب منذ نيفٍ وثلاثة عشر قرناً. ها هي أعمالهُ أوجدت أمة عظيمةً لم تزل في ازدياد علىمرِّ القرون حتى إنَّها لتعدُّ اليوم ثلاثمائة وخمسين ألفَ ألفٍ، فأروني نابغةً ممن تريدون طوته الأيام وبقي لعمله جمعٌ منظَّمٌ يعدُّ ثلاثمائة وخمسين ألفَ ألفٍ[6] نسمةً. ما نرى من ذلك من شيء إلاّ ما كان من أمر موسى وعيسى عليهما السلام، وها أنك ترى أنَّا بهما مؤمنون وبنبوَّتِهما معتقدون.

فإن قيل: إنما أَتَى الفرقُ من اختلاف المشاريع، فإن صوتَ الأديانِ يبلغُ حيث لا يبلغ سواه، وما يدريك أنَّ مُحَمَّداً ﷺ إنما وُفِّقَ من هذه الوجهةِ، ولو كان صوتُ غيره من نوابغ التاريخ نفسَ صوته الذي صاحَ به لَبَلَغَ حيث بلغَ.

---

[1] الإسراء/ ٤٧.

[2] الإسراء/ ٧٦.

[3] المائدة/ ٦٧.

[4] آل عمران/ ١٤٤.

[5] رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: الدخول على الميت: الحديث (١٢٤١ و١٢٤٢).

[6] (ألفَ ألفٍ) يقتضيه سياق الكلام، وليس في المطبوع، فأثبتناه.

قلنا: إنَّ مُحَمَّداً جاءَ على حين فترةٍ من الرسل فكان ذلك أدعى للإنكارِ وأبعثَ للنفورِ كما كان يقولُ معارضوهُ: ﴿**مَا سَمِعْنَا بِهذا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ**﴾[1] وقد قام رجالٌ على عهده ومن بعده ادَّعوا دعواه، وقد توطدت النفوسُ لمثلها، فأبرزوا من الدهاءِ ما استفزُّوا به الأحلام حتى كان لهم أتباعٌ وأشياعٌ وأنصارٌ وأعوانٌ، ثم لم يلبثوا أن افْتُضِحَ أمرُهم وانفرطَ عقدهم وغاضَ ماؤهم وسالت دماؤهم وفُلَّت جموعُهم واقفرت ربوعُهم كأن لم تَغْنَ بالأمس و لم يكونوا شيئاً مذكوراً. وما كان مُحَمَّد ﷺ أكثرَ منهم مالاً وأعزَّ نفراً ولكن هو الناموسُ الإلهي ينْزِلُ حيث يريدُ اللهُ وهي رحمته يختصُّ بها من يشاءُ.

فاستقرارُ الأمرِ لِمُحَمَّد ﷺ حتى الساعة دون غيره ممن رموا مرماهُ وادعوا دعواهُ - والأمر على ما عرفتَ مفصَّلاً- معجزةٌ له ﷺ تثبتُ انَّه على بيّنةٍ من ربه، وأنه مُؤيَّدٌ من لَدُن خالق الأرض والسماء كموسى وعيسى وإخوانِهما من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين. ذلك لِيُحِقَّ الله الحقَّ ويُزهِقَ الباطلَ إن الباطلَ كان زَهوقاً.

أَضِفْ إلى كل ما مرَّ بك ما نقله إلينا جيل عن جيل مما ظهر على يده ﷺ من الأفعال الخارقة للعادات:كانشقاقِ القمر، وسعيِ الشَّجر، ونُطقِ العجماء، والإخبار عن المغيبات، وتفجُّر الماء من بين أصابعهِ، وتسبيحِ الحصى في كفِّه، إلى غير ذلك من المعجزات التي دلَّت على صدقه وبَكَّتَتْ معارضيه[2].

ورُبَّ قائل: إن كلَّ ما ذكرتَ من تاريخ حياة مُحَمَّد ﷺ وزعمتَ من معجزاته الخارقةِ لم يبلغ آحادُها مبلغَ التواترِ، فكيفَ تنهضُ حجةٌ على ثبوت نبوَّته؟

فنقولُ: لا نُسَلِّمُ ذلك فإنَّ كثيراً منها لَئِنْ كان غير متواترٍ عند الخصمِ فهو متواترٌ عند ذَويه ولا يقدحُ بحقيقةٍ عند قومٍ الجهلُ بها عند آخرين، فريثما يختلطُ من يجهلونَها بمن يعلمونَها يرونَها متواترة، وحينئذ يصدق عليها حدُّ التواتر بالإضافة إليهم كذلك فتكون عليهم حجة قائمة. على أن هناك مثالاً منتزعاً من هيئةٍ عامة من تاريخ حياة مُحَمَّد ﷺ هو بمثابة الصَّكِّ الذي ثبتَ مضمونهُ إجمالاً وإن غابَ نصُّه تفصيلاً: يسلمه غيرُ المكابرِ من كلِّ أمةٍ إذا اهتدى بنور حُجَاهُ و لم يُؤْثِرْ ديجورَ هواهُ.

ثم هؤلاءِ اليهود والنصارى يدَّعون لموسى وعيسى عليهما السلامُ معجزاتٍ شتَّى، فإن قالوا: إنَّها غيرُ متواترة، قلنا: إنَّ الاستمساكَ بها لا يُجدي نفعاً. وإنْ زعموا أنَّها متواترة قلنا: إن تواترها بالإضافة إلى أقوام دون آخرين، فما الفرقُ إذن بين مُحَمَّد وبين موسى وعيسى عليهم السلام؟ ثم ما الفرق بين أمة مُحَمَّدٍ وأمَّتِهما؟ فما هو جوابُكم فهو جوابنا. على أن لِمُحَمَّد ﷺ معجزةً أكبر من كل معجزات إخوانه عليهم السلام -كما يمرُّ بك إثبات ذلك الآن- ألا وهي الْقُرْآنُ.

وأما القرآنُ فهو أكبر معجزة أوتيها نبيٌّ منذُ بدءِ الوحي وعهد النبوَّات، وتفصيلُ ذلك أنا نقولُ: إنَّ مناطَ التفاضُل بين الماهيات المتماثلة ما يترتب عليها من الآثار فيما وجدت لأجله، والمقصودُ من المعجزات للأنبياء أن تكون حجَّةً على صدق نبوَّتِهم أزاء أُمةِ الدعوة. وكما أن المعاصرين للأنبياء والرسل ذوو نفوس يعتورُها الشكُّ وتستفزُّها الشُّبَهُ فكان لهم حقَّ المطالبة بالمعجزات جلاءً لذاك الصدإِ وغسلاً لتلك الأدران، فكذلك الذين يأتون مِن بعدهم: بين جَنبَيهم تلك النفوسُ، ولهم الحق، لا فرقَ بين الفريقين: كِلاهُما بشرٌ ونحن

[1] المؤمنون/ ٢٤.

[2] التبكيتُ: كالتقريعِ والتعنيفِ والتوبيخِ؛ وبَكَتَهُ بالْحُجَّةَ أي غلبَهُ. وأن يستقبلَ الرجلَ بما يكرهُ. لسان العرب ج١ ص٤٦٩.

رجالٌ كما هُمْ رجالٌ.

بل نقولُ: إنَّ الإعجازَ ضروريٌّ لذاتِ المصلحةِ من الرسالاتِ. كيف لا؟ وقد اختلفَ الْمُحقِّقون في إيْمانِ المقلّد لاحتياجه إلى بواعث الاطمئنان، ولا اطمئنان من غير إلزام، ولا إلزام من دون إعجاز. وهذا نبيُّ اللهِ وخليلهُ يقول: **﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**[1] ولو لم يكن لمن أرسل إليهم حقُّ المطالبة بالمعجزة لكانت مجاراة الأنبياء لهم في ذلك ضرباً من العبثِ، وأنبياءُ اللهِ أجلُّ من هذا، بل نقولُ: لولا هذا الحدُّ الفاصلُ بين الحق والباطل لشوَّشَ على عبادِ اللهِ كلَّ يومٍ ألفُ نبيٍّ (مُتَنَبِّئ).

إذا تَمَهَّدَ لديك كل هذا فنقولُ: إنَّ القرآنَ هو المعجزةُ الباقيةُ في عَقِبِ المِلَّة مهما بَعُدَ الأمدُ وتقادمَ العهدُ فكأنه ينادي على لسان مُحَمَّد في كلِّ زمان ومكان: عبادَ اللهِ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم وهذه معجزتِي لديكم فاتقوا اللهَ وأطيعونِ.

فأيّةُ معجزة مما أتى به الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم تجاوزت عهد الرسالة وزمن التبليغ غيرَ القرآنِ؟ ثم أيّةُ ملَّةٍ تساوى عهدُ إِعجازُها في صُدورها وأَعجَازِها غير المِلَّة المُحَمَّدية؟

نحنُ نؤمن أن عيسى كان يحيي الموتى بإذن ربه، وأن عصا موسى كانت تَلْقَفُ ما يأفِكُون، ولكن إذا أنكرَ الخصمُ هذا وطلب معجزةً يراها بأُمِّ رأسه لتتمثلَ له كما مَثَلَتْ للذين من قبلهِ فماذا يضعُ أمام عينيه قوم موسى وعيسى عليهما السلام؟ أما نحنُ فنضعُ أمامَهُ القرآنَ.

فللخصم حينئذٍ أنْ يقولَ: لا نسلِّمُ أنَّه معجزٌ فنقيمُ عليه الحجةَ ونثبتُ دعوانا من وجهين:

الأَوَّلُ: أنَّ شأنَ المنكر دحضُ حجةِ المدّعي والحرصُ على ذلك بقدرِ الإنكارِ عليه، وقد عرفتَ من تاريخ حياة مُحَمَّد ﷺ فرط إنكار على ما جاء به حتى انَّه لو لم تعرف ذلك سماعاً لزمك تعقلاً ضرورة أن الناسَ أعداءُ كلَّ مُوَحِّدٍ أو مجدِّدٍ لا سيما الذين يجهلون. وقد كان ﷺ يتحداهم بالقرآن فقال يخاطبُهم على لسان من بَعَثَهُ: **﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[2] أي: إنْ كنتُم أيها المنكِرون على مُحَمَّد في شك من أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ عليه من عند الله فأتوا بسورةٍ تضاهيه في البلاغة وحُسن النظام وادعوا من يشهد لكم بأنكم ضاهيتموهُ غيرَ اللهِ فإن اللهَ لا يشهدُ؛ لأن ذلك زورٌ من القول، افعلوا ذلك إن كنتم صادقين في أن مُحَمَّداً قالَهُ من عند نفسه فإنكم عربٌ فصحاءُ مثله، فلما عَرَفَ عجزَهُم عمَّا دعاهُم إليه وتحداهُم بهِ قال: **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾**[3].

ثم تحداهم به أخرى وقد أَرخَى لهم العَنَانَ فقال: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾**[4]. فلم يكلفهم في هذه المرة مماثلته من كلتا صفحتيه: استقامة المعاني وفصاحة التراكيب والمباني، بلْ أطلقَ لهم العنانَ وفسحَ لهم الْمَجالَ واكتفى منهم بأمرٍ واحدٍ وهو حسنُ النظامِ وبلاغةُ الأسلوبِ فكأنما قالَ لهم: إنكم قوم أُمِّيُّونَ لم تُثَقِّفْ عقولَكم العلومُ، ولم توسِّع نطاقَها الفنونُ ولا هذَّبت حواشيها الحكمةُ ولا

---

[1] البقرة/ ٢٦٠.
[2] البقرة/ ٢٣.
[3] البقرة/ ٢٤.
[4] هود/ ١٣.

ضاءَ لها مصباحُ العرفانِ، وإنكم أهل بدوٍ وسذاجةِ حياةٍ، لم تصقلِ جوهرَ أفكاركم يدُ التمدن، ولا نفخت في روعكم وأنعشت أرواحكم لذَّةُ الحضارة، ولا استفزَّت عروقَكم وقدحت زَنْدَ أذهانكم روحُ التبسط في العمران، فلا ادعوكم إلى مماثلة هذا القُرآن بما تضمَّنه من بديع الحكم وجوامع الكلم وحسن العظة ونور الإرشاد وسنَّ الشرائع ووضع الأحكام وتمهيد سبل السياسة وكشف أسرار الاجتماع مما لا يضيء جِيْدَ الحياة إلاّ بعقد حُلاَهُ، إني أَدَعُ هذا اللباب وأدعوكم إلى القشور فأتوني بمثل هذه الجزالة في اللفظ والغرابة في الأسلوب على ما لكم من فرطِ العنايةِ بفصاحةِ القولِ وبلاغةِ الكلام وليكن مما يُنَزَّلُ إليكم من سماءِ الْفِرْيَةِ والاختلاق.

ثم تحداهُم الثالثةَ على سبيل الردِّ والتَّبْكِيْتِ فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] فردَّ دعواهم أن هذا القرآن مفترى من مُحَمَّد على الله بدعوتِهم إلى مماثلته ولو في الجملة، يقولُ لهم: ألستم تزعمون أنَّ هذا القرآن مفترىً جاء به مُحَمَّد من عند نفسه؟ فاتوا بجزء واحدٍ من أُلوف مما جاءَكم به مُحَمَّد وما هو إلاّ واحد منكم نشأَ فيكم ورُبِّيَ بين ظَهْرانَيْكُمْ ولم يزدْكُم في معالِم الحياة شيئاً. ثم لا تقتَصِروا على أنفسكم في معارضته وإنْ كنتم جمعاً وهو فردٌ ولا تألوا جهداً في ذلك، بل ادعوا من استطعتم ليظاهروكم في الأمر غيرَ اللهِ فإن الذي أنزله قادرٌ أنْ يأتي بمثلهنَّ، فإن استطعتم أنتم ومن معكم على بذل الجهد واستفراغ الوسع أن تأتوا بأيسرَ ما يكون من هذا القرآن الذي جاءَ به مُحَمَّد فإنكم صادقون في قولكم افتراهُ وإلاّ فإنكم كاذبون وإنكم لأنتم المفترون.

ثم تحداهُم الرابعةَ على سبيل التقرير لدعواهُ والتقريع للمنكرين إذ أعجزهم المرة بعد المرة فقال: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2].

ثم لما تكرَّرَ التحدِّي وفُضِحَ أمرُ المتعدِّي وثبتت دعوى المدعي رغم أنف الجاحد لعجزه وإلزامه أخذَ القرآنُ يصفُ نفسَهُ إزاءَ منكريه بما كانوا ينكرون من قبلُ على سبيل الإخبار لا على سبيل التحدي والاعتبار فقال: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾[3] ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[4]. ثم ضربَ له مثلاً بأعظم من هذا تنويهاً بشأنه وتَبْكِيتاً لجاحديهِ إذ تصاغرَت نفوسُهم أمامَ عظَمتهِ الكرَّةَ بعد الكرَّةِ فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

إذا وعيتَ هذا فنقولُ: أيُّ شيءٍ منعَ المنكرين على مُحَمَّد من العرب بينما كانوا كلُّهم عليه منكرين أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل القُرآن فيدحضوا حجتَهُ ويثبتوا صدقَهم في دعواهم انَّه مُفْتَرٍ على اللهِ؟ لا سيما إذ كان ﷺ يؤذِنُ بتسليمِهِ لهم واعترافِهِ بصدقهم إذا ما فعلُوا ذلك. قد رضي منهم بإبطال هذه الحجَّة فقط على خلاف ما اعتاده الجدَليُّون من عدم التسليم لأول وهلة: بل ترى الجدلِيَّ كلَّما دُحضت له حجةٌ فرَّ إلى أُخرى ثم لا يزالُ ينتقلُ من دليلٍ إلى آخر حتى لا يبقَى في كِنانتهِ سهمٌ ولا في قوسهِ مَنْزَعٌ.

---

[1] هود/ ١٣.

[2] الإسراء/ ٨٨.

[3] الزمر/ ٢٣.

[4] النساء/ ٨٢.

[5] الحشر/ ٢١.

ما الذي ضاقَ (بِسُوقِ عُكَاظٍ) أن لا يتَّسعَ صدرُ بلاغته ويندلعَ لسانُ فصاحتهِ لمماثلة سورةٍ واحدة من القرآن؟ وما كــان عكــاظُ إلاّ مجتمعَ البلغاء والفصحاء من العرب ومجتلى صور التفاخر والمباهات حتى يأتونَه من كل فجٍّ عميق، فخطباءٌ ينثرون وشــعراءٌ ينظمــون وبلغاءٌ يتفننون. وقد بلغ من فرط عنايتهم بذلك أن طأْطأُوا رؤوسَهم لمن سبقَ في ذاك المضمار أن يعلَّق صحيفة فخارهِ في أَشْعَارِهِ علــى جبهةِ الكعبة مُطَافَ جموعهم وقبلةَ معتقداتِهم، ثم بيتَ آلهتهم بزعمهم وبيتَ اللهِ الحرامِ.

لقد كان الإتيانُ بمثل سورةٍ واحدة من القرآن –لو استطاعوا– أسهلَ بكثير من خوضِ غمار الحروب وسفكِ الدماء ونَهــبِ الأمــوال وسَبيِ الذراري وأسْرِ الرجال إلى غير ذلك من صنوف الرزايا والخطوب؛ فليتَ شعري أيُّ صارفٍ صرفَ هاتيك الجموع أن يتــدبَّروا مثل هذا فيرِيْحُوا أنفسَهم بشيءٍ يسيرٍ من ذاك العناء الكبير؟ ولماذا اتسع لهم الوقت لإعدادِ الرجالِ وصرف الأموالِ وتضــمير الخيــول وتعبئةِ الجيوش ثم شحذِ السيوف وخوضِ نار الحُتُوفِ ولم يتسع الوقتُ لبليغٍ منهم أن يفكِّرَ ساعةً من زمان ويأتِي بسورة مــن مثــل القرآن، فيرِيْحُهم من كل هذا العناء ويذهب بالشرف إنْ وُجد، ثم يتبجَّحُ في جماهيرِهم بصِيْتٍ طائرٍ وفخرٍ سرمدٍ؟

إذا شئتَ فقُلْ: إنَّ القرآنَ بذاتهِ معجزٌ بجزالةِ لفظهِ وغرابةِ أسلوبهِ، وإن شئتَ فقل: انَّه غيرُ معجزٍ بذاتهِ وإنما صُرِف عن معارضتهِ القــومُ صرفاً فنحنُ نقولُ: إن هذا الصرفَ نفسهُ إعجازٌ كذلك، وإلاّ فماذا عسى أن يكونَ الصارفُ لهم والسالبُ منهم قدرتَهم إن لم يكــن قدرة اللهِ العزيزِ الحكيم ليؤيد نبيَّه ويثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فإن قيلَ: وما يدرينا لعلَّ القومَ عارضوه واستطاعوا أن ياتوا لهُ بنظيرٍ ثم لم يبلُغنا ذلك.

قُلنا: إن الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً وإنَّ الْمَجهولَ لا يثبتُ به معلومٌ ولو كان شيءٌ من ذلك لطنَّت له الأرضُ ورنَّت السماءُ: تصــوَّر جموعاً كثيرة ذات مِرَّة ومنعةٍ وهي حانقةٌ حاقدة على رجلٍ واحد تريد قهره وتحرص كل الحرص على تبكيته وقد شرط لهم الاستسلام والرضوخ بشيء إذا ما أتوا به تَمَّ لهم الدستُ وكانوا عليه ظاهرين ثم ظفروا بذلك الشيء، أفلا يستحيل عادةً أن يخفتَ صوتُ هاتيك الجموع الظافرة ويغلب عليها صوتُ ذاك الواحد وقد حقَّت عليه كلمة الغلب وهو ضعيفٌ مقهور؟ بل كان يَهِي عزمُه ويفتضحُ أمــرُه وينتقضُ عمله فيخفضُ الجناحَ ويلزمُ السكونَ ولا ينبسُّ ببنتِ شفةٍ ثم لا يبدئ ولا يعيد...

كذلك مثلُ مُحَمَّد ﷺ ومثلُ العرب لو أنَّهم استطاعوا أن يدحضوا حجتَه ويعارضوا كتابَ الله ويأتوا لشيءٍ منه بنظيرٍ.

ها هو (مُسَيْلَمَةُ الْكَذَّابُ) إذِ ادَّعى الوحيَ والنبوَّةَ فعارضَ القرآنَ، وها هي ركاكاته وسخافاته في بطونِ الدفاترِ وبين دفَّتي التاريخ، فما الذي أوصلَها إلينا جيلاً عن جيلٍ، وقرناً بعد قرن ثم حال بيننا وبين ما سِواها على فرطِ وجود المنكرين على مُحَمَّد ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم في كل جيل وحقب حتى ساعتنا هذه؟ إن العقلَ ليستحيلُ عادةً أن يحفظَ التاريخُ بين دفَّتيه أمثال قول مســيلمة في معارضــة القرآن: (الْفِيْلُ مَا الْفِيْلُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيْلُ لَهُ ذَنَبٌ طَوِيْلٌ) وقول امرئ القيس في معلقته:

تَرَى بَعْرَ الآرَامِ فِــي عَرَصَــاتِهَا وَقِيْعَانُهَــا كَأَنَّــهُ حَــبُّ فُلْفُــلِ

ثم يغفلُ معارضةَ القرآن بِما يباريه في بلاغتهِ وحسنِ نظامهِ وبراعةِ أسلوبهِ مع ما لذلك في التاريخِ من المكانةِ القصوى لو كان أمراً واقعاً.

فالقرآنُ كان حجةً قاهرةً ومعجزةً كبرى لنبوَّةِ مُحَمَّد ﷺ على أهلِ عصره وكذلك على أهل كل عصر ومنها عصرنا هذا كما عرفت وكما ستعرف الآن.

الوجهُ الثَّاني: إنا نقولُ: إنَّ تأثيرَ الزمان والمكان على تطورِ الأمم والأفراد مما لا يكادُ ينكرهُ من شمَّ رائحةً لفلسفةِ الحياة وعرف شيئاً يسيراً من روح الاجتماع، وأن الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما مُحَمَّد ﷺ لا يجهلهما من له أدنَى إلمامٍ بالتاريخ، فما على المنصفِ إلاّ أن يأخذ القرآن الذي أتى به مُحَمَّد ﷺ ويَزِنُ مَبَانِيْهِ وَيَفْقَهُ مَعَانِيْهِ وَيَتَدَبَّرُ مَغَازِيْهِ – حتى إذا ما سَبَرَ غورَهُ ووقف على مجموع ما تضمنه من الْحِكَمِ الباهرة والأحكام الزاهرة والمواعظ الزاجرة والإرشادات الناضِرة والتعاليم الفاخرة مما يخصُّ الإنسانَ ويعمُّ الأكوان من أسرار الفطرة وقوانين الطبيعة ومقتضيات الحياة فما شئتَ فحدِّث عن خريطة الكونِ وصحائف الوجود من أرض وسماء– فهنالك يعطفُ النظرُ إلى تاريخ حياة مُحَمَّد ﷺ وإلى الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما ثم يزن كلّ ذلك بِميزان الدقة والإنصاف؛ فهل يجدُ ثَمَّةَ قسطاساً مستقيماً؟

فتعالى اللهُ كيف انبثقَ مثلُ هذا النور من أحشاءِ تلك الظُّلمات؟ من أين اهتدى مُحَمَّد ﷺ إلى تحكيم العقلِ الْمُجرَّد بينما كانت الأحجارُ تحكمُ في العقول؟ ينحَتُها الرجلُ بيديه ثم يعبُدها يخرُّ أمام عظَمتِها ساجداً.

وَكَفَّاه أَوْلَى بِالْعِبَادَةِ لَوْ دَرَى هُمَا نَحتَا هَذِي الصُّخُورَ كَمَا يَدْرِي[1]

من أين عَرَفَ داء الجماعة فوصفَ له الدواءَ بين ظهرانيّ أمةٍ أَلِفَتْ شَتَاتَ الشملِ حتى استعذبت ذاك العذابَ؟ كيف عرفَ الداءَ والدواء ولم يُهْتَدَ إليهما منذ عهد أرسطاليس وجالينوس؟ من أين شرع الديْمُوقراطية[2] في البشر بينما كان بعضهم يأكل بعضاً ثم لا حياة بينهم للضعيف؟ في حجر أيِّ مدرسة ترعرع فَثَقَفَ عقلَهُ وشَحَذَ ذهنَهُ وصقلَ فكرَهُ ووسَّعَ دِماغَهُ حتى إذا دانت له الطبيعة بجذافيرها جاء بِهذا الناموس الأكبر:

الدِّيْنُ يُسْرٌ وَالْخِلاَفَةُ بَيْعَةٌ وَالأَمْرُ شُورَى وَالْحُقُوقُ قَضَاءُ

أَلَم يكن في عصرِ الظلام أحدَ الأُمِّيين فيه ونحن في عصرِ النور مما كادت المدارسُ فيه تستخدم الطبيعةَ تحت إشارة العلم والفنّ؟ فليأتِ أحدُنا منفرداً بل كلُّنا مجتمعين ببعض ما جاء به مُحَمَّد في قرآنه الْمَجيدِ. كل نور لدينا انَّه قَبَسَةٌ من هاتيك الشُّعاعات وكل كاتب عربي رضعَ البلاغة في حُجُورِ المدارس تحت نظام خاصٍّ إنَّه عاجز أن يأتِي بشَذَرةٍ من مثل ذاك العقد النضيد.

يتطاول شعراءُ كل عصرٍ وكُتَّابه على من خلا من قبلهم فيعارضون هذا ويناقشون ذاك الحسابَ حتى قالَ من قالَ يحطُّ من عصر الجاهلية

[1] من أبياتٍ كتبتُها على الجدارِ في قلعة بعلبك عندما زرتُها قبل ستِّ سنواتٍ. وقبله:

بَكَيْتُ عَلَى الإِنْسَانِ يَنْحَتُ صَخْرَةً وَيَعْبُدُهَا لِلنَّفْعِ يَوْماً أَوِ الضُّرِّ

(حبيب).

[2] أراد بالديْمقراطيَّة انتخابَ الرئيسِ العام أو الأمير العام، حيث يجري الاقتراعُ عليه، ولَمْ يُردْ الديْمقراطية كنظامٍ سياسيٍّ في الإدارة والحكم بوصفه طريقةً معينة في العيش. المطلوب هو الشورى حيث أن الخلافة شُورى بين المسلمين فلا ينتخبُ رئيس الدولة إلا بسلطان الأمة، فالجماعة تتفقُ على نصب خليفة يقوم بإنفاذِ الشريعة اعتقاداً وعملاً. وفي هذا الجانب يوجد تشابه مع الفارق، إذا الشورى بأمر شرعيٍّ جاء وحياً من الله، والديمقراطية اتفاقُ ناسٍ على رأي أو قول اتخذوهُ نظاماً لحياتِهم وطريقةً في عيشهم، فلا يستَويان مثلاً..

ويتطاول على امرئ القيس وأمثاله:

هَذَا كَلاَمٌ كَـــانَ لُؤْلُـــؤَ عَصْـــرِهِ وَغَدَا بِهذا الْعَصْـــرِ بَعْـــرَ الْجِمَـــالِ

ولكنك لا تجدُ خلال كل هاتيك العصورِ من حَدَّثَتْهُ نفسُه أن يعارضَ القرآنَ، اعترافاً منهم بإعجازه، وإذعاناً على اختلاف طبقاتِهم في المذاهب والأديان. والذي مَنَّاهُ غرورُه وأوحى إليه شيطانُ غيِّهِ، فتصدى لمثل ذلك، لم يَمْلِكْ نفسه لدى التمحيص أن يعترف بعجـــزه كما اتفقَ لأحد الملحدين من معاصري عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ[1]، لَقِيَهُ يوماً بين الكرخِ والرصافةِ فاستوقفَهُ ثم قالَ لهُ: (إنِّي قد عارضتُ قـــرآنَ مُحَمَّد فجئتُ بمثلِهِ). فاستحلفه ابنُ الجهم هل استويا عندهُ أم هل لَذَّ في ذوقِهِ قرآنُ نفسهِ بقـــدر قـــرآنِ مُحَمَّـــد والمـــرءُ مشـــغوفٌ بنتائجِ فكرهِ، فما كان منهُ إلاّ أن خضعَ أمامَ الحقيقة ثم لبسَ ثوبَ الخجلِ وَوَلَّى بعارٍ وشَنَارٍ.

هذا مُحَمَّد ﷺ وهذه بعض معجزاته الكبرى وبراهينهِ الساطعة الدالة على ثبوت نبوَّته رغمَ كل جاحدٍ ومكابرٍ ومعاندٍ حـــتى أنَّ فـــرطَ وضوحِ الحجة اضطرَّ الفريقين من مخالفيه للاعتراف ببعض حقه فطأطأ له فلاسفة (المعطِّلةِ) رؤوسَهم وقالوا: انَّه أكبرُ فيلسوفٍ بـــرزَ إلى ساحة الوجود. وقال المعتقدون بالنبوات: انَّه نبيٌّ مرسلٌ ولكن إلى قومه خاصَّةً[2] (والفضلُ ما شَهِدَتْ بهِ الأعداءُ).

---

[1] عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ بن بدر السامي الشاعر؛ له ديوان شعر مشهور، كان جيد الشعر عالِماً بفنونه، وكان متديِّناً فاضلاً. تاريخ بغداد للخطيـــب البغـــدادي: الترجمـــة (٦٢١٧): ج ١١ ص٣٦٧.

[2] وهذا جهلٌ محضٌ؛ لأنه يؤول بقائلهِ إلى الجمعِ بين النقيضين، وتحريرهُ: أن القولَ بأنه نبيٌّ يلزمُ منه القول بأنه صادقٌ بكل ما جاءَ به لاستحالةِ الكذبِ على الأنبياء والقولُ بأن رســـالتهُ خاصةٌ يلزم منه نقيضُ ذلك؛ لأنه ﷺ قد أخبرَ بأن بعثته عامةٌ. (حبيب).

التَّمْهِيْدُ الثَّالِثُ

فِي تَحْقِيْقِ مَعْنَى النَّسْخِ

وَأَنَّ شَرِيْعَتَهُ ﷺ نَاسِخَةٌ لِمَا تَقَدَّمَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ

النَّسْخُ عبارةٌ عن الخطابِ الدالِّ على ارتفاعِ الحُكمِ الثابتِ المشروطِ استمرارهُ بعدم لحوقِ خطابٍ يرفعهُ. مثال ذلك: الخمرةُ، فقد جاء فيها خطابات متعددة دلَّت على رفعِ بعضها حكمَ بعضٍ بعد لحوقهِ به؛ وتفصيلهُ:

أن الخمرةَ كان حُكمها مطلقُ الإباحة التي دلَّ عليها خطابُ الله في قوله: ﴿**تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً**﴾[1] فما زالَ هذا الحكمُ مستمراً حتى لحقَهُ خطابٌ آخر أوجبَ رفعه على سبيل التحوير من الإطلاق إلى التقييد، وذلك قولُه تعالى: ﴿**لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾[2] فصار السُّكرُ محرَّماً في وقت كان فيه مباحاً من قبل. وهو حكم ثانٍ للخمرة غيرُ حكمِها الذي دلَّ عليه الخطابُ الأول، حتى إذا نزلَ قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾[3] امتنعَ عنها قومٌ وشربَها آخرون لِما دل عليه المدحُ والقدح من التخييرِ في آنٍ واحد ولكل وِجْهَةٌ، ولكن وجهةَ القدحِ كانت أشدَّ. ثم لم يزل الأمرُ كذلك حتى لَحِقَ الخطابُ الرابع فكان حكمُها التحريمُ مطلقاً وامتنعَ القومُ عن شربها أجمعون، وذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[4].

فهذه أربعةُ أحكام تعاقبت على الخمرةِ بتعاقب الخطابات الدال بعضها على رفعِ حُكم بعضٍ: فإباحةٌ مطلقةٌ، ثم إباحة مقيدةٌ، ثم تخييرٌ في مطلقِ التحريم، ثم تحريم مطلقٌ.

إذا عرفتَ هذا وتحققَ لديك وقوعُ النسخ في أمرٍ واحد وفي شرع نبيٍّ واحد مرَّاتٍ متعددة فلا بد من التنبيه هنا على أمور لتتَّضِحَ لك حقيقةُ معنى النسخِ في الشرائع وتتجلَّى لك الحكمة البالغةُ من ذلك في التشريع ثم تَدْحَضُ ما عسى أن يَرِدَ عليك من ضلالات ذوي الشُّبَهِ أو وساوس أهل السذاجة والجمود فنقولُ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: قد تبيَّنَ لك من حدِّ النسخ أن استمرارَ الحكم الثابت مشروط بعدم لحوق خطاب يرفعه فرفعه بخطاب يلحقه وصفٌ من أوصافه، فإذا ما رُفِعَ حكمُ خطابٍ بآخر هل ترى هنالك غير موصوف قد أخذ صفته؟ وأي محذور في ذلك؟ فإن الكتابة مثلاً وهي صفةٌ لزيد الكاتب إنما تظهر فيه عند إرادته، فمباشرته إياها، فإذا ما أراد ذلك وعمد إلى رَقٍ ينمِّقه فهل من إنكار عليه؟ أم هل يخرجه

[1] النحل/ ٦٧.
[2] النساء/ ٤٣.
[3] البقرة/ ٢١٩.
[4] المائدة/ ٩٠.

عدمُ مباشرته الكتابةَ بالفعل عن كونه كاتباً؟

الثَّاني: إن إطلاق الحكم لا يلزم الاستمرار عليه أبداً فإن السيد قد يأمرُ عبدَهُ بالقيام مثلاً ويطلقُ له الأمرَ إطلاقاً غير مقيّد بوقت خاص ومدة معينة عند العبد، ولكنه مقيَّد بهما عندَه، ثم يأمره بالقعود عندما يرى مصلحته في ذلك وإنما أَبْهَمَ عليه الأمرُ ابتداءً من غير تخصيصٍ وتعيينٍ ليستمرَّ على الامتثال؛ لأنَّ مصلحتَه كانت آنئذٍ في القيام لا في القعود.

الثَّالِثُ: إنَّ رفعَ الحكم بخطاب آخر لا يلزمُ منه الاستبانة بعد الجهل، بل هو نتيجةُ العلم بما تقتضيه المصلحة كما عرفت من أمرِ السيد وعبدِهِ: إذ أمره بالقيام لِما كانت مصلحته فيه حتى إذا تغيرت أَمَرَهُ بالقعود وهو يعلمُ مدة مصلحته فيهما، ويرى من المصلحةِ أنْ لا ينبِّهه عليها فلا يلزم من جهلِ العبدِ بذلك أن لا يكون به السيد عالماً.

الرَّابِعُ: إنَّ الطفرةَ محالٌ، والتدرُّجُ في الأمرِ حسبما يقتضيه ممَّا تقضي به الحكمةُ. والنسخُ في الأحكام عبارةٌ عن تحويرها تدرجاً إلى الغاية المطلوبة كالطبيب يأمرُ مريضَه بالْحِمْيَةِ مثلاً، ثم يرخِّصُ له شيئاً فشيئاً يسيرُ مع قابلية مزاجه المتطوّر من آن إلى آنٍ لتحصل النتيجة المطلوبة وهي الشفاءُ، ولو أتاها طفرةً لَما أَمِنَ من عروض النكسِ؛ فردِّ الفعلِ ثم ضياعَ المطلوب. وما أشبهُ التشريع بالتطبيب: هذا لشفاءِ الأجسادِ، وذاك لشفاءِ الأرواحِ.

الْخَامِسُ: إن الحكمةَ تقضي بملاحظة الآمرِ قابليةَ المأمور، والقابليةُ نتيجةُ تطويرِ الأيام والعصور، وهذه على استمرارها غيرُ قارَّةٍ الذَّاتِ، وإنما هي بنت التحوُّل والانتقال، والقابلياتُ والأطوارُ تتلوَّنُ بلونها من آنٍ إلى آنٍ كالماء بالإضافة إلى الإناء، فالنسخُ عبارةٌ عن إعطاء تلك القابليات المتحوّلة والأطوار المنتقلة حقَّها رعايةً للمصلحة وحفظاً لأسِّ القصد وليس فيه تغيير أو تناقض، بل هناك أحكام مستقلةٌ ظهرت على تراخٍ في أيامها المقتضيةِ وأجلها الموعود. ومن أجل هذا المعنى نفسه وَهَمَ مَنْ وَهِمَ فأنكرَ وقوعَ النسخِ مطلقاً وما فعل شيئاً إلاّ أن وافق في المعنى وخالف في التسمية واللفظِ.

السَّادِسُ: إنَّ النسخَ إذا كان عبارةً عن رفع حكم خطاب بآخر وكان نتيجته اختلاف القابلية والتطور رعايةً للمصلحة بإعطائهما حقَّهما وهما -أعني القابلية والتطور- تبع للأيام والقرون فهو – أعني: النسخ – بالوقوع في قرون متباعدة أجدرُ منه بالوقوع في أيام متقاربةٍ. وشتان ما بين العصرين: عصر موسى وعصر عيسى عليهما السلام، ثم شتان ما بين عصريهما وعصور من تقدمهما وبينَ العصر الذي ظهرَ فيه النبيُّ مُحَمَّد الذي أثبتنا نبوَّته في التمهيد الثاني بالأدلَّة القاطعة والبراهين الساطعة.

فكون شريعتهِ ﷺ ناسخةً لِما تقدمها من الشرائع أمرٌ يجبُ على العقول المفكِّرة أن لا ترتاب فيه، وعلى الأفكار النيِّرةِ أن تأنسَ به، ثم على النفوس المهذبة أن ترتاحَ إليه كلَّ الارتياح؛ لأنه جريٌ على سُنن الكون وقانون الحكمةِ وفلسفة الحياة، فالدورُ الحجري غير الحديدي، والدور الابتدائي للإنسان غير دوره الانتهائي بالضرورة.

والذي ينوِّر المسألة أحسنَ تنوير أن مُحَمَّداً ﷺ لم يكن ناسخاً لشرع مَنْ قبله في معظم الأحكام، بل في بعضها مما فرق بينهما كرُّ العصور ومرُّ الدهورِ وما أحدثه ذلك من الاختلافِ في التطور والقابليةِ. وإلى مثل هذا يشيرُ قولُه عليه أَتَمُّ صلاةٍ وسلامٍ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ**

لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1]. فإن من المعلوم أن الإتمامَ تجديدٌ في الوجود وزيادةٌ فيه لا إيجاد وتأسيس.

قال الإمامُ الغزالي حجة الإسلام ﷺ في كتابِهِ المسمى بـــ (الاقتصادُ في الاعتقادِ) بعد كلامٍ يناقش فيه بعض الملحدةِ الحسابَ قال: هكذا ينبغي أن يُفهم هذا المقام فإن ورودَ النَّبيِّ ليس بناسخٍ لشرعِ مَنْ قبلَهُ بمجرَّدِ بعثتِهِ ولا في معظمِ الأحكام ولكن في بعضِها كتغــيير قِبْلَـــةٍ وتحليل محرَّمٍ وغير ذلك، وهذه المصالح تختلفُ بالأعصار والأحوالِ.

[1] هذا اللفظ عن أبي هريرة؛ رواه البيهقي في السنن الكبرى:كتاب الشهادات: جماع أبواب من تجوز شهادته: بيان مكارم الأخلاق: الحديث (٢١٣٧٩) وإسناده صحيح. وله ألفــاظٌ أخرى عند الإمام أحمد في المسند: ج١ ص٣٨١، والحاكم وغيرهما.

التَّمْهِيْدُ الرَّابِعُ

فِي أنَّه ﷺ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَأَنَّ فِي شَرِيْعَتِهِ الْكَفَاءَةَ لِذَلِكِ

عَرَفْتَ بالبرهانِ والدليلِ أن مُحَمَّداً نبيٌّ، والآن ندَّعي انَّه خاتمُ الأنبياء ونثبتُ لك ذلك من طريقين:

الطريقُ الأولُ: أن الأنبياءَ لا يجوزُ عليهم الكذبُ؛ لأنَّهم خلفاءُ الله في أرضه وأمناؤه على وحيه وخيرتُه من خلقهِ، والكذبُ من خُلُق الأشرارِ لا الأخيار ومدعاةٌ لعدم الثقةِ بصاحبه وعدم الاعتماد عليه ثم لسوء الظن فيه والتفرق عنه مما ينافي العلَّة الغائية للنبوة، بل يوجب نقض الاستخلاف ثم انتقام المستخلف ممن عهد إليه بالأمر فنكث العهدَ وخانَ الأمانةَ وأغفلَ الواجب فاتبع هواه دون أمر الله، قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[1] وقال: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ**﴾[2] وقال: ﴿**وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾[3]، وقد ثبت لديك في التمهيدِ الثاني أنَّ مُحَمَّداً نبيٌّ، فيحصل من هاتين المقدمتين أن مُحَمَّداً لا يجوز عليه الكذبُ، كيف وقد كان أعداؤه يشهدون له بذلك حتى كانوا يدعونه (الأمين) لفرطِ صدقهِ وأمانتهِ وهو قد أخبرَ عن نفسه فيما رويَ عنه انَّه خاتمُ النبيين وقال لعلي ﷺ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُوْنَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَرُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ انَّه لاَ نَبِيَّ بَعْدِي**»[4].

وكذلك قامت عليك الحجةُ أنَّ القرآنَ كلامُ الله لا يأتيهِ الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفهِ تَنْزِيْلٌ من حكيمٍ حميدٍ، وهذا القرآنُ المعجزُ يقولُ على لسان التبليغِ: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾[5].

الطَّرِيْقُ الثَّانِي: إنَّ إِنْهَاءَ النبوَّاتِ بختمٍ تتمُّ على يدهِ نواميسُ التشريعِ مما تقتضيه المصلحة وتوجيه الحكمة البالغة؛ لأن تعددَ الشرائعِ والأديان من بواعث الاختلافِ– كَانَ النَّاسُ أمةً واحدةً وما اختلَفُوا إلاّ مِن بعدِ مَا جاءَتْهمُ البيِّناتُ– وفرطُ الاختلافِ بينَ العبادِ يخلُّ بنظام الكون ويمزقُ الشملَ من الهيئة الاجتماعية كلَّ مُمزَّقٍ حتى يسدَّ على الأمم والشعوب سُبُلَ الحياة، والزمنُ الذي بعث فيه مُحَمَّد ﷺ كان صالحاً لأَنْ يدورَ الفلكُ بمثل هذه الدَّورة إذا كانت الشرائعُ والأديانُ قد أخذت القِسطَ الكافي لظهور الحكمةِ المكونةِ في قوله عَزَّتْ كلمتُهُ: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**﴾[6] وقوله: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[7] والزيادة في ذلك إخلال للنظام وتشتيت للشمل فوق الإرادة، فبعثُ الله مُحَمَّداً ﷺ وجعله خاتَم النبيين.

---

[1] المائدة/ ٦٧.

[2] الحاقة/ ٤٤-٤٦.

[3] ص/ ٨٦.

[4] عن سعد بن أبي وقَّاص ﷺ؛ رواه البخاري في الصحيح: كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب علي ﷺ: الحديث (٣٧٠٦). ومسلم في الصحيح: كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل علي ﷺ: الحديث (٣٠-٣٢).

[5] الأحزاب/ ٤٠.

[6] البقرة/ ٢٥١.

[7] هود/ ١١٨-١١٩.

فَلَزِمَ من ذلك (أي من جعله خاتَم النبيينَ) أمرانِ: أن تكون بعثتهُ عامةً، وأن يكون في شريعتِهِ الكفاءةَ لذلك (أي لكونه ختماً) وكذلك كان، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ الا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾[1] وقال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[2] وأيُّ حاجة تعوز بعد الكمالِ؟ وأيُّ عملٍ يكون بعد الإتمامِ؟

فإن قيل: أَلَمْ تكن تزعمُ أنَّ مناطَ اختلاف الشرائعِ ونسخ بعضها بعضاً هو اختلافُ العصور والقرون بما يُوجِبَنَّهُ من التبدلِ والتحوُّلِ في القابلية والأطوار؟ فكيفَ ساغَ لك أن تعرض عن هذا المقتضي وتستثني مُحَمَّداً من هذا القانون ثم تجيزَ له أن تكون شريعتُه ختماً وبعثتُه عامةً؟

قلنا: من أجلِ ذلك كانت شريعتُه واسعةَ النطاقِ غزيرةَ المادةِ فسيحةَ الْمَجالِ مترامية الأطرافِ بحيثُ تنطبقُ على روح كلِّ عصرٍ مهما تنوعت تطوراته في مناهج الرَّقي الصحيح وعلى روح كلِّ أمة مهما اختلفت فيهنَّ القابليات في سُبل الشرف والفضيلة.

ولولا خوفُ الإسهاب لأتينا من ذلك بتفاصيل وافية وآيات بيِّنات لا تدعُ على بصرٍ غشاوةً ولا على قلب غباوةً، ولكنا نكتفي من ذلك بأن نستلفت النظر إلى بعض الأمور من كليات هذا الدين الحنيف مما أهَّله أن يكون صالحاً لكل الأمم والشعوب في كل القرون والعصور وكان في تدبُّر مَغَامِزِهِ كفايةٌ لِلَّبيب[3] إذا ما اتخذه مقياساً للوقوف على كُنْهِ عظمة هذا الدِّيْنِ المبين ومعياراً لبقية ما جاءَ به من من الهدى والنورِ مما يصلح أن ينقذ كل أمة من وَهْدَةِ الضَّلال ويمزق حُجب الظلام في كل العصورِ.

وقبلَ الخوضِ في ذلك لا بدَّ من استلفات الأنظار إلى الزمان الذي ظهر فيه مُحَمَّد ﷺ وماذا كان نصيب الأديان السماوية يومئذ من معترك الحياة فنقول:

يومَ بزغت شمسُ الحقيقةِ الُمحَمَّديةِ لم يكن في الأرضِ من خبر السماءِ غيرَ الإنجيل والتوراة، وقد شبَّ عُمُرُ الزَّمَانِ عن طوقِ كليهما[4] وضاقَ بِهما النطاقُ أن يتسعا لما اتسعَ له صدرُ الأيام.

أما الإنجيلُ فمواعظُ وحِكَمٌ وإرشاداتٌ وأخلاقٌ، لا زواجرُ وحدودٌ وقضاءٌ وأحكامٌ. وما كان أهله إلاَّ بمعزلٍ عن شؤون الحياة وتطويرِ الأيام وتكوينِ الشعوب وتقلبات البسيطة في مصالحِ الأمم ومرافق الاجتماع، فما ترى إلاّ صوامعَ شِيدَت على دعائم النُّسك وبِيَعاً أُسِّست على حبِّ الدَّعَةِ والسُّكون ثم دُيوراً غاصَّة بالقسس والرهبان لا يهمُّهم إلاّ ضربَ النواقيس وتقديسَ الصلبان، يلبسون الصوفَ ويأكلون البقولَ ويشربون ما يشربون بِدَعَةٍ وسكينة وأمن وأمان، ولو ضربتَ الخدَّ الأيسر من أحدِهم لحوَّل لك الخد الأيْمَن كما يأمره إنجيلهُ. ومن وراء جدران الديورِ والصوامع قبائلُ وشعوب تقودهم الأهواءُ وتسوقُهم الغرائز وينفخُ في مناخرهم الشيطانُ، يأكل بعضُهم بعضاً ولا يُسأل الظالمون عما يفعلونَ. فهم في حاجةٍ إلى من يقوِّمُ أَوْدَهُمْ ويكبحُ من جماحِهم ويرتق لهم الفتقَ ويمهد لهم سُبل المصالح،

---

[1] سبأ/ ٢٨.

[2] المائدة/ ٣.

[3] الْمَغَامِزُ: الْمَعَايِبُ. والغَمِيْزُ والغَمِيْزَةُ: ضَعْفٌ في العملِ وَفَهَّةٌ في العقلِ، وليس في فلان غَمِيْزَةٌ، أي ما فيه ما يُغْمَزُ فَيُعَابُ به، ولا مَطْعَنٌ. والمغموزُ: الْمُتَّهَمُ. لسان العرب (غمز): ج ١٠ ص١٢٠-١٢١.

[4] عمرُ الزمان: العمر: الحياةُ؛ وشبَّ عمرُ الزمان؛ أي بلغَ مبلغَهُ بالنسبةِ للشيء، وشبَّ الغلامُ أي كَبُرَ إذا بلغَ، وشبَّ النارَ والحربَ أوقدَها، وشبة النار اشتعالها. يريدُ: إن ضروراتِ الحياة الحياة البشريَّة قد كبرت وبلغَتْ بما لا يسعهُ شَرعُهما، بل ضاقَ التأويلُ والتفسير لهما في هذه الضروراتِ بما لا يُغني في معالجة المسائلِ وحلِّ المشكلات.

يثيبُ مُحسنَهم ويعاقب مُسيئهم وكذلك يحملهم على الصراطِ المستقيم، فيريحهم من العناءِ وينقذهم من وهدةِ الشــقاءِ. ولكــن أنّــى للمعتكفِ في زوايا الديورِ والصوامع لا يعرفُ إلاّ ما انضمت عليه جدرانُها أن يصلح من شأنِ المتعسِّف من ورائها؟ وبينهما حجــابٌ، وما لبعضهما إلى بعض سبيلٌ.

وأما التوراةُ: فإن نورَها الذي استطاع في القرون الأولى أن يُمزِّقَ شيئاً من غياهبِ الفرعنة في سماءِ مصرَ ويقضي على جبَروت العمالقة في الأرض المقدسة، كان في مبدأ القرون الوسطى قد تضاءَل حتى لم يعد في استطاعته أن يُضيء لبَنيهِ وذويه ليلمَّ لهم شَعَثاً ويضمَّ شَملاً – فتراهم قد بَاءُوا بغضبٍ من الله متشرِّدين متشتِّتين تحت كل حَجَرٍ ومَدَرٍ لا يجمعُهم سلطانٌ ولا تُمثِّلُهم راية– فكيف ينشر جناحَــهُ على من سواهم ممن يخالف أطوارهم وينافي تقاليدهم وتنبو قابلياتُهم عن مغامزه ومغازيه لتنفذ فيهم أحكامه وتقام حدوده على حين أن لا بد من صلة بين الأمم وشرائعها، ولا بد لإقامة الحدود من زعيم له سلطانٌ؟

ثم من وراء ذلك مجوسيةٌ ووثنيةٌ: فنارٌ توقد لتعبدَ وأحجارٌ تنحت ثم يُركعُ لها ويُسجد، ثم دهريةٌ معطِّلة مِلؤُها كفرٌ وطفاحُها كُفــرَانٌ والفوضى ضاربة أطنابَها، والإنسانُ يأكل الإنسانَ، ظُلْمٌ وظُلَمٌ وأحكامٌ من غير حكمٍ، لا إيْمانَ ولا أيْمانَ ولا علمَ ولا فنَّ ولا صــنائعَ ولا عرفانَ، جهل تسحُّ غمامةُ فتنبت الشقاء وغرور تسجع حمائمه فتثيرُ البلاء، أوهامٌ سيطرت على العقول فكانت عقالاً، وخرافــات طمست على نورِ الهدى فعاد ضلالاً، عبيد كفروا النعمة فأسخطوا مولى كريماً، وأبقوا من الربقة فجاءوا أمراً عظيماً، أرض استقلّت عن السماء كأن لم يكن بينهما سبب ممدود، ومخلوقٌ كَفَرَ بالخالق كأن لم يكن بينهما فضلُ الموجدِ على الموجُودِ: ظلماتٌ بعضــها فــوق بعض حتى كادَ يلعنُ أهلُ السماء سكانَ الأرض.

فَأَذِنَ اللهُ أن يبتسمَ فجرُ الشريعة المُحَمَّدية حتى استطارت أنوارهُ في الآفاق فجلَّت الغياهبَ ومزقت ستارَ كل ظَلامٍ.

فللَّه ذاك الفجرُ وحبذا أنوارهُ ولقد كان مبدأُ سعادة الإنسان يوم أشرقت على هياكل التوحيد آثارهُ وأنه النور الذي لن تغرُبَ شموســه ولن تغيبَ أقمارهُ، خالدٌ أبداً ومقيمٌ سرمداً، مهما أراد به شرّاً أعداؤهُ الحاسدون وحسَّادهُ المنكرون. ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُــوا نُــورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

كيفَ لا، وهو قائم على قواعد راسخة ودعائم شامخة وأوتادٍ كالأطوَادِ لا تزلزلُها العواصفُ ولا تنالُ منها الأيدي مهما تعاقبت الأجيالُ واختلفت الأيام والليالي، وكذلك شأن الجبال. كما يتضح لك مما نذكره الآن من بعضِ كليات هذا الدين الحنيف وفاءً بالوعدِ وجلاءً للأبصارِ ثم شفاءً لما في الصدور. فنقول:

منها: الاعتدالُ في التشريع، والقصدُ والتوسُّط في الأمور.

كان الإنجيلُ والتوراة على طرفَي نقيض من فرط الشدة واللين فجاءَ القرآنُ مثاني بين وعدٍ ووعيدٍ: لا يأخذ بالخِناق فيسدُّ باب الرجــاء إذا ما أوعد، ولا يلقي[2] العنان على الغارب فيرفعَ سوط الخوف إذا ما وعد، ولكنما يبتغي بين ذلك سبيلاً.

[1] التوبة/ ٣٢.

[2] في المطبوع: (يلقى) وهو تصحيف طباعي.

تَهَاوَنُ أهلُ الإنجيل في شأنِ التطهيرِ حتى اكتفوا بماء العماد، وشدَّدَ أصحابُ التوراة حتى لم يرتَضُوا غيرَ القطعِ طُهوراً أي قطـع محـلِّ النجاسة من الثوبِ مثلاً، فأتى الشرعُ الْمُحَمَّديُّ وسطاً: فعدَّ النظافةَ من الإيمان وأبَى ضررَ القطعِ والإتلافِ وجعل الماءَ طهُوراً من كلِّ حدثٍ وخَبَثٍ.

تَسَاهَلَ أصحابُ الإنجيل في التوبةِ من الذنب حتى التمسُوا مغفرةَ المخلوقِ في معصية الخالق[1] وشَدَّدَ أهلُ التوراة حتى عوقِبوا بقتل النفس توبةً واستغفاراً، فجاء الدينُ المُحَمَّديُّ بين ذلك قَوَاماً: فما كان لله رَدَّهُ إليه فقالَ: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَـادِهِ وَيَعْفُـو عَـنْ السَّيِّئَاتِ﴾**[2] وقال: **﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾**[3] وما كان لعباده على عباده جعله قضاءً تصحبه الحكمة ويلزمه العدل وينفذه السلطان، فمن يعمل مثقالَ ذرَّة خيراً يرهُ، ومَن يعمل مثقال ذرَّة شرّاً يرهُ ولا يظلم ربُّك أحداً.

أَفْرَطَ بنو الإنجيل في الحِلِّ حتى جعلوا رائدَهُ النفس فوقعوا في بعض الخبائث، وفَرَّطَ بنو التوراة في التحريم حتى حَرَمُواْ أنفسهم من كـثير من الطيبات فجاءَ القرآنُ على غير هذا وذاك: فأحلَّ عن حكمة وحرَّم عن حكمة وجعل الإباحة أصلاً[4] والحرمة فرعاً، ثم ناطَ التحريمَ بتوليد المفاسد حسّاً أو معنى وصرحَ بالحكمة من ذلك في مواضع ولوّح في أخر وترك الأمر للزمان فيما عسى أن يأتي ببيانه يومئذ –أي يوم نزلَ القرآنُ– غريباً كما أشار إلى شيء من ذلك ابنُ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[5]. وبعد هذا وذاك نادى بلسان التبليغ: **﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ﴾**[6] وبالجملة فإن أمثالَ ذلك كثير مما لو سردناه لطال المقال وضاق المقام، ولكن خيرَ مرآةٍ تمثل كل هاتيكَ المثل قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**[7] وقوله : **﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**[8].

وإذا اتضحَ أنَّ في الدينِ الإسلامي اعتدالاً في التشريع وتوسُّطاً في الأمور لزمَ أن يكون دينَ الفطرة ونظام الطبيعة وشريعة الإصلاح؛ لأن العوارض في مظاهر الحياة لا تخلو عن الإفراط أو التفريط –وهما مفسدة– ثم عن ثالثٍ بينهما نسميه بالاعتدال وهو الذي لا يتمُّ نظـامُ العالَم دونه مهما اختلفت الأدوار والأطوار كالْمِحور للدائرة لا ينتظم لها من دونه دوران. فدينُ الإسلام باعتداله وتوسطه منطبق على سُنن الكون وما كان كذلك فهو خالدٌ سَرمدٌ ما دامت الأكوان من أجل ذلك كان دينَ الفطرةِ كما قال تعالى: **﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ**

---

[1] هي مسألة الاعتراف. ومستندُهم فيها قولُ الإنجيلِ "مَا حَلَلْتُمُوهُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَحْلُولاً فِي السَّمَاءِ" وقد بحثتُ مع بعض البطارقةِ وغيرهم من رؤساء الدين المسيحيِّ في هذه المسـألة وأفهمتُهم أن منطوقَ الآية لا يدلُّ على ذلك باعتبار التركيب فإن الْحَلَّ غير الحِلِّ ولا ضرورة تدعو إلى هذا الْمَجاز ثم ليس هناك من قرينة تدل عليه، ولِمَ لا يجوز أن يكون معـنى الآية أن ما تفعلونه في الأرض له صورة في السماء كأنَّها هو، كذلك تحفظ عليكم أعمالكم ليجزى كلُّ امرئٍ بعملِهِ إنْ خيراً فثواباً أو شرّاً فعقاباً. وتفسيرُ الحَلِّ بالفعلِ أقربُ مـن تفسيره بالحلّ كما يقال: مسألة كذا كان حلُّها على شكل كذا. ثم قلتُ: أجل في الإنجيل آية أخرى: اعترفوا بخطاياكم. ولكنا لا تدلُّ على الاعتراف بشكلِهِ الموضوع، بل يكفـي لصدق الآية في امتثال أمرها أن يبتهلَ المذنبُ إلى مولاه ثم يعترف بخطاياه ويسأله المغفرة ابتداءاً من دون أن يتوسطَ بينهما عبدٌ، ربَّما كان له من تلك الخطيئة أمثالُها ومـا أحـالُ المسألةَ إلاّ وضعيَّةً أكثر من أنَّها شرعية . فكان الجواب: إنَّها كذلك أي وضعية بمعنى أنَّها من تعاليمِ الكنيسة المعبَّر عنها بالتعاليمِ المسلَّمة أي التي يتلقَّاها علماءُ الكنهوت بعض عن آخرين. (حبيب).

[2] الشورى/ ٢٥.

[3] المائدة/ ٣٩.

[4] الأصلُ في الأشياءِ الإباحةُ. قاعدةٌ أصولية مأخَذُها قوله تعالى: **﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾** البقرة /٢٩. (حبيب).

[5] كان يقول فيما روي عنه ما معناه: أن في القرآن معاني سوف تظهرُ بتعاقبِ العصور. ولولا ضِيقُ المقام لجئنا من ذلكَ بأمثالٍ غير يسيرة. (حبيب).

[6] الأعراف/ ٣٢.

[7] البقرة/ ١٤٣.

[8] البقرة/ ٦٦.

النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١] وفي الحديث الشريف: «**مَا مِنْ مَوْلُوْدٍ إِلاَّ وَيُوْلَدُ عَلَى الفِطْرَةِ ثُمَّ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[٢]..

ومنها: كونهُ بشيراً أكثرَ من كونه نذيراً.

الأديانُ قوةٌ تحكمُ الضمائرَ وتسيطرُ على النفوسِ تُحْكِمُ وثاقهما بأسلاك من نور وطَوَلٍ من نار، والقلب مرآةُ التقلُّب ولذلك سمي قلباً، والنفس مفطورةٌ على حبِّ الإطلاق وبغض التقييد ويبعد على المأسور أن يرتاحَ إلى آسرهِ. فلا بد هناك من صبغة تُقَرِّبُ البعيدَ وتؤنسُ النافرَ وتلطِّفُ المشاهد وتخفف على المأسورِ في يد الآسر، وخير رائد النفوس الرِّفقُ. وأجمل مؤنسات القلوب بُشرَاها. وبهذا أتى دينُ الإسلام. قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا**»[٣] وفي الكتاب الْمَجيد: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾**[٤] وفي الحديث الشريف: «**أَوْغِلُوا فِي الْدِّيْنِ بِرِفْقٍ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أَبْقَى**»[٥]. وقال: «**لاَ تُشَادُّوا هَذَا الْدِّيْنِ**»[٦] ثم ندَّد بأهل التوراةِ في قصَّة البقرة فقال: «**شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»[٧].

ومنها: مراعاتهُ للزمان والمكان وما يَلِدَانِهِ من عُرف وعادة.

الإنسانُ ابنُ التطورِ، والزمان والمكان من بواعثه، والعرف ما حصل عليه التعارف فأنكرت النفوس سواه، والعادة طبيعة ثانية والطبيعة لا تقاوم، وإن في الشرع الُمحَمَّدي مكانة للزمان والمكان والعرف والعادة المتطورين عنهما، قد عرف لهذه المؤثرات الأربع مقداراً يدور على محوره فَلَكٌ كبيرٌ ودائرة واسعةٌ لا تضيق عن شيء من بواعث الحياة ومصالح العباد مما يعود عليهم بالفضيلة.

ومَنْ تَصَفَّحَ كتبَ الفقهِ وأقوالَ الفقهاءِ بتدبرٍ وإمعانٍ تجلَّتْ له هذه الحقيقة بكل مجالَيها فإنك ترى المتأخرين منهم يخالفون المتقدمين في شيء من الفروع ثم يقولون (لفساد الزمان) مثلاً يتخذون ذلك سنداً كمسألة الحِجاب وأضرابِها[٨] وقضَى عمرُ ﷺ في المشتَرَكة

---

[١] الروم/ ٣٠.

[٢] رواه البخاري في الصحيح: كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبي: الحديث (١٣٥٨-١٣٥٩). ومسلم في الصحيح: كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة: الحديث (٢٦٥٨/٢٢).

[٣] الحديث عن سعيد بن أبي بردة عن جدِّه قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما: [الحديث...] رواه البخاري في الصحيح: كتاب الأدب: باب قول النبي ﷺ: الحديث (٦١٢٤) واللفظ له. ومسلم في الصحيح: كتاب الجهاد: باب في الأمر بالتيسير: الحديث (١٧٣٢/٦ و١٧٣٣/٧).

[٤] النساء/ ٧١.

[٥] من حديث جابر بلفظ: «**إِنَّ هَذَا الدِّيْنَ مَتِيْنٌ فَأَوْغِلُواْ فِيْهِ بِرِفْقٍ** ...». رواه البزار في المسند: وفي سنده متروك وهو يحيى بن المتوكل أبو عقيل؛ وهو كذاب. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ج ١ ص٦٢. وينظر تخريج أحاديث كتاب إحياء علوم الدين للحداد: ج ٢ ص٨٧٢: الحديث (١١٣٩).

[٦] بهذا اللفظ في إحياء علوم الدين، وقال الحداد: هكذا هو في القوت. الحديث (١١٣٩). وأصله في صحيح البخاري: كتاب الإيمان: باب الدين يسرٌ: الحديث (٣٩) بلفظ: عن أبي هريرة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الدِّيْنَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّيْنَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ**».

[٧] هو من تفسير ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: رواه الطبري في جامع البيان: النص (١٠٢٦ و١٠٣٣) تفسير الآية ٦٧ من سورة البقرة. وعن ابن جريج من قول رسول الله ﷺ: النص (١٠٣١).

[٨] من المقرَّر في كتب الفقه: أن الوجهَ واليدين ليسا بعورةٍ وإلاّ لوجب سترُهما في الصَّلاة حين تناجي المسلِمةُ ربَّها، والخالقُ أولَى بمظاهرِ الإجلال من المخلوق. ولكن فسادَ الزمان وخشيةَ الفتنة حَمَلاَ المتأخِّرين على التشديدِ في الحجاب بشكله المعهودِ. ولا أريدُ بشكله المعهودِ تلكَ الأزياءَ التي يَتَفَنَّنُ في وضعِها كلَّ يوم بعض من يسوقُهنَّ النقصُ في التربية إلى التبهرُجِ الذي لا ينقصُ حكمةُ عن التبرُّج، فذلك ما تنبُو عنه حكمة التشريعِ ويبرأ منه المتشرِّعون. وهذه مسألة من أهمِّ المسائل الاجتماعية يطولُ البحث عنها وليس هذا محلُّها. ولكن غايةَ ما نقولُ هنا: ما أجملَ الحجاب الشرعيَّ إذا أُصلِحَتِ التربيةُ وحَسُنَتِ الأخلاقُ. تلك عائشةُ الصدِّيقة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا كانت من أعظمِ رُواةِ الحديث وكثيراً ما كان يرجعُ إليها الأصحاب في مُعضِلات الأمور حتى خاضت غمارَ السياسة ورَكِبَتْ المفاوزَ وأذكت نيرانَ الحروب وهي التي أوَّلُ مَن أُمرت وأخواتُها بالحجاب، وفي بيوتِهنَّ نزلَ، وما خالفَتْ أمرَ الله فيه طرفةَ عينٍ، وما كانت معاذَ الله لتُنقِصَ من أمره شيئاً. كذلك كانت المسلمةُ بل أُمَّهاتُ المؤمنين يوم كانت التربيةُ صحيحةً وكانت الأخلاقُ فاضلةً. وماذا

بالتشريكِ في عام وتركِ التشريك في غيرِهِ فقيل له: ما هكذا حكمتَ في العام الماضي.فقال:(تِلْكَ عَلَى مَا قَضَيْنَا وَهَذِهِ عَلَى مَا نَقْضِي)[1]. وأكبرُ من هذه حكمه ﷺ بوقوع الثلاث دفعةً على خلاف ما كان على عهد الرسول وخليفته الأول زجراً للناس، إذ تبدلت أطوارُهم فخالفوا السنَّة في الطلاق وأكثَرُوا من هذه البدعة فأراد تقويمهم وردَّهم إلى السنَّة والكتاب إذ: ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾[2] وفي ردِّهم إلى ذلك يأمنون من خطر الندامة على ما فرط منهم فيما لو ثابَتْ لهم أحلامُهم وتاقت إلى الرجعة نفوسُهم. وبذلك يأخذون من حكمةِ هذا الحكم الشرعي بقدر المصلحة التي شُرِّعَ من أجلها ثم يخفِّفون من غلوائهم في ركوب ما كان أبغضَ الحلال إلى الله[3] وكذلك عمر خالفَ أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في سَبي أهل الردَّة فلما توفِّي الخليفةُ الأول وأفضت النوبةُ إليه ردَّ النساء والذراري إلى عشائرِهما فاختلفَ الحكمُ في زمانين والقضية واحدةٌ.

كل هذا يفعلهُ عمر رضوان الله عليه ثاني الشَّيخين ومن أخصِّ أصحاب الشارع ﷺ والذي زيَّن أشرف صحيفة من تاريخ الإسلام بِحُسن سياستهِ وفرط عدالته.

ورفع إلى أبي يوسف رَحِمَهُ اللهُ مسلمٌ قَتَلَ كافراً فحكمَ عليه بالقَوَدِ فأتاهُ الرجل برقعةٍ فألقاها فإذا مكتوب فيها:

يَا قَاتِلِ الْمُسْلِمَ بِالْكَافِرِ ... جُرْتَ وَمَا الْعَادِلُ كَالْجَائِرِ
يَا مَنْ بِبَغْدَادَ وَأَطْرَافِهَا ... مِنْ عُلَمَاءِ النَّاسِ أَوْ شَاعِرِ
اسْتَرْجِعُوْا وَابْكُوْا عَلَى دِيْنِكُمْ ... وَاصْطَبِرُوْا فَالأَجْرُ لِلصَّابِرِ
جَارَ عَلَى الدِّيْنِ أَبُو يُوسُفٍ ... بِقَتْلِهِ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ

فدخلَ أبو يوسف على الرشيدِ وأخبرهُ الخبرَ وأقرأهُ الرقعة فقال له الرشيد: تَدَارَكْ هذا الأمرَ بحيلةٍ لئلاَّ تكون فتنةٌ. فخرجَ أبو يوسف وطالبَ أصحابَ الدم بِبَيِّنَةٍ على صحَّة الذمَّة وثبوتِها فلم يأتوا بها فأسقطَ القَوَدَ[4]. قال الإمامُ الماورديُّ بعد نقلِ هذه الحكاية: والتوصلُ

على المسلماتِ لو كُنَّ على قدم أمهاتِهنَّ اللائي رُبِّينَ في حجر النبوَّة ومهبط الوحي؟ أم يريدُ البسطاء أن يترفَّعوا بهنَّ إلى منزلةٍ أعلى! ومقامٍ أسمى! لقد كَلَّفُوا أنفسَهم إذن شططاً. ولنختم البحثَ بهذين البيتين من قصيدةٍ في الوطنية والاجتماع:

نِعْمَ اللَّوَاتِي زَادَهُنَّ مِنَ التُّقَى ... وَمِنَ الْعُقُولِ لِجِيْدِهِنَّ عُقُودُ
يَرْفُلْنَ مِنْ نُورِ الْعَفَافِ بِحُلَّةٍ ... تَاهَتْ بِعِزَّتِهَا الثِّيَابُ السُّودُ

(حبيب).

[1] رواه عبد الرزاق في المصنف: كتاب الفرائض: الحديث (١٩٠٠٥): ج ١٠ ص٢٤٩. والبيهقي في السنن الكبرى: كتاب الفرائض: باب المشركة: الأثر (١٢٧٢٦ و١٢٧٢٨).

[2] البقرة/ ٢٢٩.

[3] يشير إلى الحديث الشريف: «**أَبْغَضُ الْحَلاَلِ إِلَى اللهِ الطَّلاَقَ**» فإن قيلَ: فلماذا شَرَعَهُ الله إذن لعبادهِ وشَرَعُ الشيء نتيجةُ استحسانهِ، وشتَّان ما بين البُغْضِ والاستحسانِ، قُلنا: الطلاقُ إثنان: ما تدعُو إليه الضرورةُ وتكون فيه المصلحة. وما لا يكون فيه شيءٌ من هذا ولا ذاكَ، وإنما يكونُ قائده الْحُمْقُ وسائقه السَّفه كما سموه باعتبار هذا النوع يمينُ السفهاء. وهذا هو الذي يبغضهُ الله. والنوعُ الأول: هو الذي من أجلهِ كان الطلاقُ مشروعاً كما إذا حصل نفَارٌ بين الزوجين لأيِّ سبب كان، فأصبحَ كل منهما مَدْعَاةً لشقاءِ الآخر بينما يجبُ أن يكون من أكبرِ وسائل سعادته لاسيما وقد صرَّحَ القرآنُ بأن مناطَ الزوجية أن يكون بينهما رحمةٌ ومودَّة، وبهذا تدحضُ كل شبهةٍ يوردُها المتمخرقون على دينِ الإسلام في مسألة الطلاق التي يَحْسدُ المسلمين عليها الرأيُ العام من المسيحيين بالرغم عما تشدُّقَ به أربابُ الأهواء. ولو عانَى هؤلاء الاجتماعيون النظريُّون ما يُعاني أولئك الاجتماعيون العمليُّون لوقَفُوا معهم في مصافِّ الحاسدين ولعلموا أن النظرَ غير العملِ وأن حجَّتنا في هذه المسألة الاجتماعية الكبرى هي العملُ، والعمل هو المعوَّلُ عليه في الاجتماعيَّات. (حبيب).

[4] الأحكام السلطانية والولايات الدينية: في أحكام الجرائم: الفصل الخامس: في قود الجنايات وعقلها: ص٢٣١-٢٣٢.

إلى مثلِ هذا سائغٌ عند ظهور المصلحةِ فيه[١].

وأمثالُ ذلك في الفروع من المسائل الاجتهادية رعايةً للزمان وحفظاً للمصلحة أكثر من أن يحصى، والمرجعُ أصلٌ واحدٌ: قولهم: (تَتَغَيَّـــرُ الأَحْكَامُ بِتَغَيُّرِ الأَزْمَانِ)[٢].

تَنْبِيْهٌ:

لا يذهبنَّ الوهمُ هنا إلى أنَّ الأمرَ على إطلاقه فنكون من الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً كما وصفهم الله في كتابه المجيد. بل هناك تفاصيلُ ليس هذا محلها، إليها المرجع وعليها المعوّل لقوم يعلمون. ولا بأس أن نتعرض لكلمةٍ مختصرةٍ في ذلك تدفعُ هذا الوهم وتعزّزُ ما لأجلــه سقنا ذاك الحديث فنقول:

مسائلُ الدين تنقسم إلى ضروريات ونظريات، فالأولى: لا يتغيرُ لونُها ولو تعاقب عليها ألفُ إناء حتى أنَّ جاحِدها ليكفَّـــرُ، كـــالحجِّ والصلاة والصوم والزكاة مما بُنِيَ عليها الإسلامُ فكانت أُصُولاً. والثانية: هي التي تكون مثار غبارِ الاجتهاد عند تزاحُمِ الأدلَّة وتصـــادُمِ المآخذ في مضمار البحث والاستنباط، وهي الفروع التي تتعلّق بتلك الأصول وأضرابها، كتعديل الأركان في الصلاة مثلاً: أواجــب أم فرضٌ؟ وأكلِ مَنْ أصبح غيرَ ناوٍ للصوم: تجب عليه الكفّارة أم لا؟ وأمثال ذلك من الفروع التي لا تكاد تحصيها أقلام السادة الفقهـــاء على فرط تتبُّعهم واستقرائهم حتى الفرضيات فيما أَلَّفوا وصنَّفوا من الْمُجلَّدات الضخام بَيْدَ أن الدستورَ الأعظم فيما هنالك قولهم: (لاَ مَسَاغَ لِلاجْتِهَادِ فِي مَعْرَضِ النَّصِّ)[٣].

ثم النصُّ إثنان[٤] منه ما كان مرتَّباً على العُرف، ومنه ما كان العُرف مرتَّباً عليه، فهذا الثاني لا يمكن أن يُزَلْزِلَهُ شيء مهما دارت الأدوارُ وتبدَّلت الأطوار. هكذا ينبغي أن يفهم هذا المقام.

ومنها: التيسيرُ ورفعُ الحرجِ.

للنفسِ حالتا قبضٌ وبسطٌ، وعُسرٌ ويُسرٌ. ومن البديهي الذي لا ينكرهُ أحدٌ وله عليه شاهد من نفسه أن النفوس تأْبَى الحرجَ وتطمـــئن حيثُ تجدُ اليُسْرَ. وبذلك جاءَ دينُ الإسلام: قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ**﴾[٥] وقال: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي**

---

١ الأحكام السلطانية: ص٢٣٢.

٢ مجلة الأحكام العدلية: المادة (٣٩)، يقول شارح الْمَجلة سليم الباز: (المرادُ أنَّ هذه الأحكامَ المبنيَّة على العُرف والعادة لا على النصِّ والدليل تتبدلُ مع تبدُّلِ العُرف والعوائد التي بُنيت عليها). وبيَّن الشيخُ العبيديُّ المرادَ بها في (تنبيهٌ) فلاحظ.

٣ أو (لا مساغ للاجتهاد في مورد النص) الْمَجلة: المادة (١٤).

٤ هذا التقسيمُ للإمام أبي يوسف رَحِمَهُ اللهُ كما استفدناهُ من سماحة الحبرِ الكبير موسى كاظم أفندي شيخ الإسلام الأسبق خلالَ بحث بيننا فقهيٍّ طويل إذ كنتُ في العاصمة وكان على مَنَصَّةِ المشيخةِ الإسلاميةِ قبل أربعةِ أعوامٍ وبضعةَ أشهرٍ. (حبيب).

٥ البقرة/ ١٨٥.

الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] فما دام التيسير ورفع الحرج يكتنفان هذا الدين القويم فماذا عسى أن يؤثر عليه اختلاف الليالي والأيام؟

ومنها: مَزْجُ الدِّيْنِ بِالسِّيَاسَةِ وَمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ نَجَاحُهَا.

أشرفُ مظاهرِ الوجود الحقُّ والحقيقةُ، والدينُ–من حيث انَّه دينٌ– لا يعدُوهما. ثم الحقُّ ابنُ القوةِ، ولا قوةَ من غير مُلْكٍ، ولا مُلْكَ مـــن غير سياسةٍ، ثم لا نجاحَ للسياسةِ إلاّ بأخذِ الأمةِ قِسْطَهَا من وسائل الحياة طبيعيةً كانت أم وضعيةً. فمِن ثَمَّةَ كان دينُ الإســـلام بكـــل مظاهره سياسياً اجتماعياً، مادياً أدبياً، عمرانياً أخلاقياً، ترى هذه العوامل من الحياة متسربة في كل مظاهره –حتى في صنف العبـــادات منه كما سيتضح لك في (المقصود) عما قريب– على حين أنك ترى غَيْرَهُ من الأديان خُلواً من أمثال ذلك.

---

[1] الحج/ ٧٨.

تَمْحِيْصٌ وَمُنَاقَشَةُ حِسَابٍ

الدينُ شيءٌ وأهلوهُ شيءٌ آخر، فلا تلزمه تبعة المقصّر منهم، بل تحميله تبعة ذويه ضربٌ من الجهل بالمنطقِ؛ لفقدِ الملازمة بينهما في ذلك: كما إذا ألقى سيدٌ إلى عبده بأوامر وزواجر ثم عصى العبد مولاه فلا ائتمر ولا ازدجر، فهل من الرويَّة والإنصاف أن تُحمل تبعةُ عصيانه على سيده الذي أمره ونَهاهُ؟ فإذا ما قصَّر المسلمُ فاقتصر من دينه على صنف العبادات فقط، فهل يلزمُ من ذلك أن لا يكون في الدين غيرَها؟ أم هل من الحكمة والتعقل أن تُحْمَلَ تبعةُ صاحب الدين من ذلك التقصير على الدين نفسه؟ أما إنَّها لَقِيَاسَاتٌ فاسدةٌ لا يقول بها إلاّ كلُّ عَمِيٍّ غَوِيٍّ يُمَخْرِقُ بها[1] كيما يتخذها سُلّماً لغاية دنيئة وهوىً ممقوتٍ، كالذين ينددّون بالمسلمين من علماء الغرب وساسته، فيحملون تقهقرهم في معتركِ الحياةِ على دينهم الحنيف، يزعمون انَّه هو العقبة الكَؤُودُ في سبيل رُقِيِّهم، وهكذا يحمِّلونَ الدينَ تبعة أهليه تشويهاً للحقائق وتَمويهاً على البسطاء ثم طعناً في الدِّين وذَويه يرشقونَهما بسهم واحدٍ.

وفي مقدمة القوم علماءُ الإنكليز وساستُهم ثم رُسلهم الذين ينفقون عليهم القناطيرَ المقنطرة من الذهب والفضة في تلك السبيل، يدُسُّونَهم بين المسلمين كيما ينتشروا فيهم انتشارَ الجراثيم السامَّة في الهواء. ولقد أفرطوا في ذلك حتى أن ساسَتهم لتمثل هاتيك الأدوار المشؤومة يخطُّونَها بقلم مُبشِّر ديني على مِنَصَّةِ مُعْتَمَدٍ سِيَاسِيّ. ولقد بلغت بهم الوقاحةُ أن ينشروا مطاعنَهم على دين الإسلام بين ظهرانيِّ المسلمين في عقر دارهم التي لم يمتلكوا ناصيتها بعد، ولا حكّموا فيها الوثاق، ثم ينشرون هاتيك المطاعن بصفتهم سياسيين: كما اتَّفَقَ لكرومر[2] في رسالته (مصرُ الحديثة) يوم كان معتمدَ السياسة البريطانية في مصرَ البائسة. وإلى ما مَخْرَقَ به اللوردُ يساق الحديث في هذا التمحيص:

إن الهدفَ الوحيد الذي فوَّقَ نحوَهُ اللوردُ سهمَ قلمهِ في تلك الرسالة هو المقارنة بين الشريعتين العيسوية والْمُحَمَّدية، وأن السببَ في رُقيِّ المسيحيين وانحطاط المسلمين إنما هو دينُهما.

نحن نُجلُّ الأديانَ[3] أن نتخذها هدفاً لسهام الطعن، ثم نجلُّ أنفسنا عما رضيه لأنفسهم كرومر وزملاؤه من توجيهِ المطاعن إلى الدينِ نفسه، ولكنا نناقشهُ وأضرابَهُ الحسابَ تمحيصاً للحقيقة وإثباتاً لدعوانا آنفاً من أنَّ غيرَ الإسلامِ من الأديان خلوٌ من السياسة وما يتوقف عليه نجاحُها من عوامل الحياة ووسائل العمران.

---

[1] مَخْرَقَ والْمُمَخْرَقُ: الْمُمَوَّهُ، وهي مَخْرَقَةٌ، مأخوذةٌ من مَخَارِيقِ الصِّبيانِ. لسان العرب: ج ٣ ص٤٩.

[2] كرومر: المستر بارنج، اللورد كرومر فيما بعد، سكرتير السفارة الانجليزية في الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية؟ ظهر كتابه (مصر الحديثة) عقبَ مغادرته مصر، حيث هاجم الإسلامَ وصوَّره ديناً رجعيّاً لا يصلحُ لأن يقومَ على أساسه نظامٌ اجتماعي راقي. وهو الذي وضع فكرةَ تأسيس (كليَّة فكتوريا) بقصد إعدادِ جيلٍ من أبناءِ الحكَّام والزعماء والوُجَهاء في محيطٍ انجليزي، ليكونوا مِن بعدهم أدوات المستعمرِ الغربي في إدارة شؤونِ المسلمين. ينظر المزيدُ من التفصيل: دراسات الدكتور مُحَمَّد مُحَمَّد حُسين في كتابَيه: الإسلامُ والحضارة الغربية: دار الرسالة، الطبعة التاسعة: ص٥٠، والاتجاهاتُ الوطنية في الأدب المعاصر: ج ١ ص١٨ و٢٧: الطبعة الخامسة، مؤسسة الرسالة، و د. موفق بَني مرجه، صحوةُ الرجل المريض: ص١٩٩.

[3] ولهذا عندما بحثنا عن اختلاف الأديان جعلنا منشأهُ اختلافَ العصور لا قصور بعضها عن بعض. وعندما قارنَّا بين الأديانِ الثلاثة كنا نقول: تساهلَ أصحابُ الإنجيل، وشدَّد أهل التوراة، أفرطَ بنو الإنجيل، وفرَّط بنو التوراة، مثلاً نُسندُ الفعلَ إلى ذَوِي الدين لا إلى الدينِ نفسه. (حبيب).

الْمَجالُ هنا أضيقُ من أن يَسَعَ البحثَ على وجه التفصيل، ولكن نسأل اللورد ومن كان على شاكلته بعض الأسئلة ثم ننادي في القـــوم هل من مجيب؟

نسألُهم: متى كانَ عهدُ المسيحيين بالرقيّ؟ ومتى كان عهدُهم باعتناق هذا الدين؟ هذا التاريخ بين أيدينا وأيديهم يشهدُ أن بين العهدين بَوْناً شاسِعاً، فلو كانت المسيحيةُ هي السبب في رُقِيِّ المسيحيين لتمتعوا بِهذا الرقي منذُ بدءِ اعتناقهم إياها –ضرورة أن الأسباب لا تنفك عن مسبَّباتِها– ولكن التاريخَ يشهدُ بخلاف ذلك.

نسألُهم: عن عهد الْمَجَازِرِ ومحكمة التفتيش وهاتيك الأدوارِ المظلمة والهمجيةِ المستحكمة الحلقات يوم كان القومُ يأكلُ بعضُهم بعضاً قرابينَ على مذابحِ الأهواء: ألَم يكونوا يومئذ مسيحيين؟

نسألُهم: ماذا كانت قارةُ أوربا قبل احتكاكِ الغرب بالشرق في الحروب الصليبية، وقبل ما قبست من الأندلُسِ شُعاعاً؟ أكانت منبثـــقَ أنوارٍ، أم مُجتَلَى ظُلَمٍ وظلمات؟ ثم ليشهَدُوا على أنفسهم: ألَم يكونوا يومئذ مسيحيين؟

نسألُهم: لماذا خلعَ ساسةُ الفرنسيس ومفكِّرُوهم رِبْقَةَ الدين فحطَّموا الاكليروس وقوَّضوا دعائمَ الفاتيكان سَعياً من وراء حيـــاةٍ راقيـــة وعيشة راضية؟ وفي أيِّ يومَيهم كانوا أوفرَ حظاً من الرقيِّ وأوفَى سهماً: يوم كانوا تحتَ سيطرة الدين المسيحيِّ، أم يوم تملَّصوا مـــن رِبقته فعاشوا أحراراً؟ إن المسيحيَّ الافرنسي ليشهدُ بخلاف ما يدعيه أخوهُ الإنكليزي، وإن التاريخَ ليعضِّدُ الافرنسي بكل معانيهِ.

نسألُهم: ألَم يكُ دينُ المسيح قبل دينِ الإسلام بستة قرون؟ فأيُّ رُقِيٍّ يومئذ هدى إليه بَنيهِ ثم أهداهُ إلى بقية الأمم والشعوب؟ ولماذا ضاقَ صدرهُ خلال ذاك الزمن الطويل عما اتسعَ له في الزمن الأخير؟

نسألُهم:– والتاريخُ بيننا شاهدٌ عدلٌ – هل ينكرون علينا – معاشر المسلمين – ما جئنا به من الخوارقِ يوم اعتنقنا هذا الدينَ وما كنـــا من قبله شيئاً مذكوراً؟ أم هل لهم شهداء: إنَّهم قد جاءوا بمثل ما جِئنا به يومَ اعتنقوا المسيحية ديناً؟ ليستشهدوا (هِرَقْلَ) من تحت أطباقِ الثَّرى ينبِّئهم إنَّهم مبطلون، ولا ينبِّئُك مثلُ خبيرٍ.

أَجَلْ ما من تَبِعَةٍ على دين الإسلام في تقهقر بنيه بالرغم عمَّا يُمَخْرِقُ به كرومر وأمثاله؛ وإنما التبعةُ علينا نحن معاشر المسلمين.

إِنَّهُ لَدِيْنٌ سِيَاسِيٌّ[1] اجتماعيٌّ، اقتصاديٌّ عمرانِي، أدبِي أخلاقي، روحانِي جثمانِي، دنيوي أُخروي، يكفل لذويهِ سعادَ الدَّارَين، ولكـــن المسلمين في غَمْرَةٍ ساهون. وهذا ما دعَى كرومر وأمثالَهُ إلى مثل ذاك العدوان الكبير والبُهتان العظيم، ولكن لِيَـــثقنَّ ســـكارى الكِـــبر والغرور: إنَّها ليست برقدة أهل الكهف، بل هناك أجفان آذنت بالفتح ونيام أخذَتْهم هزَّةُ الانتباه والمسلمون اليوم في طور جديد.

ومنها: – وهي الغايةُ التي تقصرُ دونَها الغايات – إلقاءُ الحبل على غَاربِ الاجتهاد من حيث يعضِّده الهدَى ولا يقوده الهوَى.

عرفْتَ في آخر تنبيه مرَّ بك أن في الدين مسائل نظرية في مثار غبار الاجتهاد، وقد عرفتَ من قبلُ أن الإنسان رهن التطـــور، فهـــو في

[1] كما فصَّلنا الأمرَ وأثبتناهُ في رسالة (خطبة نادي الشَّرق) التي نشرناها بِهذا الاسم أثناءَ حربِ البَلْقَانِ وضمنَّاها الدعوةَ إلى (الاتحاد الإسلاميِّ) لَمّاً لشعثِ الشرق عامةً وتوحيداً لكلمـــة المسلمين خاصةً. (حبيب).

حاجة إلى ذلك. وما أخالك تجهل أن المصالح تمشي من وراء هذا. ألا وإنَّ دين الإسلامِ قد ألقى الحبل على غارب الاجتهاد من أمـــراء الأمة وعلماء المِلَّة بردِّ المسائل إلى كتاب الله وحديث نَبِيِّهِ ﷺ مع قسرِ الأمة على إطاعتهما، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ**﴾[1] وأولوا الأمر هم الأمراء أهلُ التدبيرِ والسطان، والعلماء الذين يستنبطونَ الأحكامَ من الحديث والقرآن كما يُروى عن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا[2]. فهذان الصِّنفان من قـــادةِ الأمـــة يكفلان دورَ الإرشاد للإنسان من أدوارِهِ الأربعة ويقُومان بواجب الشريعة والدين يعضِّد بعضُهما بعضاً فيما يخصُّ الأمة والمِلَّـــة مـــن المعتقدات والعبادات والمعاملات، وليس في الدينِ من شيء وراء هذه الثلاث.

ومن هنا نوَّهت الشريعةُ الْمُحَمَّديةُ بشأن الإمرةِ على المسلمين أعظمَ تنويهٍ، كما سيمرُّ بك تفصيل ذلك، ومن هنا كان علماءُ هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل كما ورد في الحديث الشريف[3].

وحسبُنا في مسألة الاجتهاد حديث معاذ ﷺ حين ذهبَ عاملاً على اليمن[4]، وما رواه البخاري عن ابن العاص يرفعهُ إلى النبي ﷺ من أنَّ الْمُجتهدَ إذا أخطأَ فلهُ أجرٌ وإذا أصابَ فلهُ أجران[5]، ثم قولهُ تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنـــذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**﴾[6].

ومنها: تحكيمُ العقلِ وتأويلُ النقلِ إذا تعارضا كما قرَّرهُ علماء هذا الدين الحنيف.

يقال: العقلُ عِقَالٌ. بمعنى أنَّه يمنعُ صاحبَهُ أن يتجاوزَ الحقيقةَ عند تصوُّرِها، وهو من هذه الحيثيَّة لا يتبدل بتبدُّل الأعصار والأجيال. بـــل هو قائدُ السعادة ورائدُ الفلاح في كل عصرٍ ومصر وفي كل أمَّةٍ وجيل إذا ما رجع إليه ذووهُ وقد شحذوا مِديَتَهُ بنور العلم ثم حكَّموه في مغامزِ الآخرة والأولى. ودين الإسلام يرجعُ بأبنائه دائماً إلى التدبُّر والتذكُّر وإعمال الفكر وإمعان النظر تحكيماً للعقل وإرشـــاداً بنـــور هداهُ، فتراه يختمُ كثيراً من الآي في الكتاب الْمَجيد بأمثال قوله: ﴿**أَفَلاَ يَعْقِلُونَ**﴾ ﴿**أَفَلاَ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ ﴿**أَفَلاَ يَتَفكَّرُونَ**﴾ ﴿**أَفَلاَ يَتَـــدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[7] هذا بخلاف ما ترى عليه بقية المِلَل من فرطِ الانقيادِ الأصمِّ والتقليد الأعمى لأَيَّةِ كلمةٍ فاهَ بها كاهنٌ أو خطَّتها يدٌ في كتابٍ على اسمِ الدين، حتى أنك لترى أحدَهم إذا ألزمتَهُ الحجةَ بتحكيم العقل الْمُجرَّد فضاقت به السُّبل وعمِيت عليـــه الطرقُ اعتصم بحبلِ العنكبوت واتكأَ على عُكَّازِ الأعمى وقال لك: (إِنَّ الدِّيْنَ وَرَاءَ الْعَقْلِ) يقولُها ولَم يشعُرْ بما يترتـــبُ عليهـــا مـــن

---

[1] النساء/ ٥٩.

[2] عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية قال: (يَعْنِي أَهْلَ الْفِقْهِ وَالدِّينِ، وَأَهْلَ طَاعَةِ اللهِ الَّذِيْنَ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ مَعَالِيَ دِينِهِمْ وَيَأْمُرُونَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَأَوْجَبَ اللهُ طَاعَتَهُمْ). رواه الحاكم في المستدرك على الصحيح: كتاب العلم: الحديث (٤٢٣/ ١٣٤).

[3] حديث: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيْلَ**». في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: ص٢٨٦: الحديث (٤٧)؛ قال الإمام الشوكاني: قال ابن حجر والزركشي: (لا أصل لهُ). وروي بسند ضعيف: «**أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالاجْتِهَادِ**».

[4] هو حديث: «**بِمَ تَحْكُمُ يَا مُعَاذُ؟**». رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٢٣٠ و٢٣٦ و٢٤٢. وفي الجامع الصحيح للترمذي: الحديث (١٣٢٧ و١٣٥٨) قال الترمذي: ليس إسناده عندي بمتصل. وفي أعلام الموقعين: ج ١ ص٢٠٢: شرح خطاب عمر: حديث معاذ في القياس: قال ابن قيم الجوزية: لا يضرُّه ذلك... ولا يعرف في أصحابه — أي معاذ — متـــهم ولا كذاب ولا مجروح. وصححه.

[5] رواه البخاري في الصحيح: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب أجر الحاكم إذا اجتهد: الحديث (٧٣٥٢). ومسلم في الصحيح: كتاب الأقضية: الحديث (١٥/ ١٧٦١).

[6] التوبة/ ١٢٢.

[7] مُحَمَّد/ ٢٤.

محذورات ومحظوراتٍ، إنَّا نقولُ لهذا المسكين:

أولاً: أليسَ العقلُ أشرفُ ما مَنَّ اللهُ به على عباده؟ فإذا كلفنا بما وراءه أفلا يكون ذلك إسقاطاً له عن مرتبة الاعتبار مما يؤدّي بالقضية إلى طرفَيّ نقيضها؟

ثانياً: الأديانُ تكاليفٌ، فإذا جازَ أن تكون وراءَ العقلِ لزمَ تكليفُ الْمَجنون والصبيِّ غير المميزِ. وأنه لأَمْرٌ لم يرضه المخلوق في سنِّ القوانين الوضعية، فكيف يرضاه الخالق فيما شرع لعباده من الأحكام الشرعية وهو اللطيفُ الخبير؟

ثالثاً: إنما يمتازُ عن سائر الحيوان بالعقل، فإسقاطه عن مرتبة الاعتبار في الأديان تَنْزِيْلٌ للإنسان عن مرتبة عَلائهِ؛ والأديانُ أرفعُ مقاماً من أن تكونَ وسيلةَ سقوطٍ ومُنحدرَ هبوطٍ.

رابعاً: معنى قولنا: (هَذَا وَرَاءَ الْعَقْلِ) إنَّ نطاقَ العقل يضيقُ عن وسعه، فالتكليف بهِ يُعدُّ فوق الطاقةِ ضرورةً، والتكليف بما لا يطاقُ ظلمٌ محضٌ يَجُلُّ عنه مقامُ الألوهيةِ.

خامساً: أصلُ الأصول في الأديان الإيمانُ، ومعناه التصديقُ بالجنان، والتصديق بالشيء فرعٌ عن معرفته، وما كان وراء العقلِ كان مجهولاً لديه ضرورة أنَّه لا يتعلقُ به الإدراك، فمن أين يأتِي الإيمانُ إذا كان الدينُ وراءَ العقل؟

سادساً: ما كان وراء ا لعقل لا يتأصلُ في القلب ضرورةً-مهما تعلَّقَ بنياطهِ[1] بناموس الإرث وسُلطة التقليدِ[2]- وما لم يكن متأصلاً في القلب لا يطمئن إليه، ومناط الإيمان الاطمئنان. ولذا توقف في إيْمان المقلد بعضُ العلماء ورفضَهُ آخرون، والذين أجازوه استندوا إلى الضرورةِ فيمن لا يستطيعُ الاستدلالَ من رُعَاعِ الدَّهْمَاءِ.

سابعاً: في البدن أعضاءٌ تتفاوتُ في الفضل، وأفضلُها القلبُ والدماغُ. ثم لكلِّ عضوٍ وظيفةٌ من أجلها أعطاناه الله، وإنا لنرى أنفسنا نحرصُ كلَّ الحرصِ على سلامة كلٍّ منها كيما نستعملهُ في وظيفته حتى على الظُّفر من البنصر، فهل من الحكمةِ والرَّوِيَّةِ أن نعتني بكلِّ الأعضاءِ حتى أصغرَها قدراً ثم نعمدُ إلى أكبرِها فائدةً وأوفرِها شرفاً وأعمِّها نفعاً فنطرحهُ في زاويةِ الإهمالِ فيما هو من أقدسِ مظاهر الحياةِ، ألا وهو الدينُ؟ ذلك مَثَلُ قولِنا (الدينُ وراءَ العقل)!.

ثامناً: هي (مانعةُ الجمعِ والخلوِّ معاً) فإمَّا عقلٌ، وإما شيءٌ مَا وراءَه، لا ثالث لهما، وليس وراءِ العقل غيرُ الجنونِ؛ لأنه قَسيمُهُ. ثم ما أخالُ أحداً ينكرُ علينا إذا قلنا: الرضاءُ بالجنون ضربٌ من الجنونِ. وهي لطيخةٌ تلحقُ الذين يريدونَ أن يُدِيْنُواْ اللهَ بما وراءَ العقل، إنَّها لاحقةٌ بِهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

[1] من (نوط): نَاطَ الشَّيْءَ يَنُوطُهُ: عَلَّقَهُ، والنوطُ: مَا عُلِّقَ، سمي بالمصدر. وفي المثل: (عَاطٍ بِغَيْرِ أَنْوَاطٍ) أي يتناول وليس هناك شيءٌ معلَّق. ونِيَاطُ كلِّ شيءٍ: مُعَلَّقُهُ كَنِيَاطِ القوسِ والقربة. والنِّيَاطُ: عِرْقٌ عُلِّقَ بِهِ القلبُ من الوَتِيْنِ، فإذا انقطعَ ماتَ صاحبهُ. ونِيَاطُ الْمَفَازَةِ: بُعْدُ طَرِيْقِهَا كأنَّها نِيْطَتْ بمفازةٍ أخرى لا تكادُ تنقطعُ. لسان العرب: (نـوط) ج١٤ ص٣٢٨-٣٢٩.

[2] النَّامُوسُ: بيتُ الراهب. ويقال للشَّرَكِ: ناموسُ؛ لأنه يوارَى تحت الأرض. والناموسُ: وعاء العلم، وقيل: الناموس صاحبُ سرِّ الخيرِ، والجاوس صاحب سِرِّ الشرِّ. لسان العرب (نمس) ج ١٤ ص٢٩١-٢٩٢.

إذا وعيتَ كلَّ ما أملينا عليك فنقولُ: انَّه بمثلِ هذه الكليات من الشريعة الْمُحَمَّدية كان الدين يُسراً لا تستطيع أن تُشَوِّهَ وجهه بوصمةِ العُسر كفُّ العصور وأيدي الطبقات من أبنائها مهما تناءَتْ تلك وتناكرَ هؤلاء. وبارتكازهِ على مثل هذه الأُسسِ المتينة تسنَّى لـــه أن يكون دينَ الفطرةِ، ناسخاً غيرَ منسوخٍ، وجازَ أن يكونَ صاحبُ بعثته ﷺ خاتمَ الأنبياء، وأن تكونَ شريعتهُ خاتمةَ الشرائعِ.

فإنْ قيل: إنكَ زعمتَ أن للإنسان أربعةَ أدوارٍ ثالثُها دورُ الإرشاد وخصصتَهُ بالأنبياءِ ثم رتبتَ عليه الرابعَ وسميته دورَ الجزاءِ وزعمتَ انَّه لا يتمُّ نظامُ الوجود دونهُ، ثم قلتَ في آخر التمهيدِ الأولِ: إنَّ مناطَ حِفْظِ الشرائع والأديانِ وبقاءِ الإنسان إنساناً إنما هو خلائفُ الله في أرضهِ، وما خلفاؤُه فيها غيرُ أنبيائهِ.

والآن تقولُ: إن النبوَّاتِ قد خُتمت بِمُحَمَّدٍ ﷺ بمعنى انَّه لن يأتي بعدَهُ نَبيٌّ. فأينَ بقي دورُ الإرشاد ثم دورُ الجزاء اللذان نوَّهتَ بشـــأن لزومهما من أدوار الإنسان؟ وأين بقي خلائف الله في أرضه؟ أولئك الذين جعلتهم مناط حفظ الشرائع والأديان وبقاء الإنسان إنساناً.

قلنا: إنكَ بعدما عرفتَ أن كثرةَ الاختلاف في الشرائع والأديان يُخِلُّ بنظام الكون فاقتضت الحكمةُ أن تختمَ بشريعةٍ كافية وديـــنٍ وافٍ يمشيان مع العقل ويسيران مع الحكمةِ جنباً لجنبٍ، ينطبقان على روح الفضيلة مهما تدرَّج الإنسانُ في معارج الارتقاء بين ثنايا العصورِ ومعاطف الدهورِ بمقتضى (قانونِ التكاملِ) وفهمتَ إجمالاً أنَّ في الشريعةِ الْمُحَمَّدية الكفاءةَ والكفايةَ لذلك فنقولُ: إنَّ اللهَ تعالى لم يترُكِ الأمرَ هملاً بعد مُحَمَّد ﷺ بل جعلَ للأمة أَئِمَّةً من بعدهِ يُرشَدون برشدهِ ويهتدون بهداهُ، تجتمع بهم الكلمةُ وينضمُّ الشملُ ويعزُّ الـــدين وينتظمُ به أمرُ الملةِ وتقامُ بهم حدودُ الله، أولئكَ هم أئمةُ المسلمين وأولئك هم خلفاءُ النبيِّ فيما استخلفَهُ الله. ومن المقـــررِ الثابـــتِ في المنطق أن مضافَ المضافِ إلى الشيء مضافٌ إلى ذلك الشيء، فالخلافةُ الإسلاميةُ إذن خَلَفُ النبوَّةِ بل النبوَّات التي شرعت ليخلفَ اللهَ ذَوُوهَا في تنفيذ أحكامه. وإلى هذا يساقُ الحديثُ أولاً وآخراً وهو المقصودُ.

الْمَقْصُودُ

فِي أَنَّ الْخِلاَفَةَ الإسْلاَمِيَّةَ خَلَفُ النُّبُوَّةِ بَلِ النُّبُوَّاتِ وَأَنَّهَا وَاجِبَةٌ قَبْلَ كُلِّ وَاجِبٍ دِيْنِيٍّ

عَرَفْتَ في صدرِ الرسالة أن الفصلَ الأولَ منها معقودٌ لبيان منشأ الخلافة الإسلامية. وما أَخَالُكَ إلاّ وقد اتَّضَحَ لك ذلك بما ليس فوقه مزيدٌ بما قَدَّمْنَاهُ من التمهيدات التي مَرَّتْ بك تفاصيلُها مرتباً بعضُها على بعض أشبهَ بترتيبِ المقدمات من الشكلِ المنطقيِّ عندما يُرادُ التَّوَصُّلُ إلى النتيجةِ بصورةٍ يَشْرَبُهَا الطبعُ ويَأْنَسُ بِها الفكرُ وترتاحُ إليها النفسُ.

فعلمتَ: أن منشأ الخلافة الإسلامية مبدأُ الْخِلْقَةِ إذِ استخلفَ اللهُ آدمَ في الأرض، ثم جعلها في ذريّته من النبيين والمرسلين، حتى أفضتِ النبوةُ إلى مَنْ ختمَ به الرسالاتِ فجعل بعثَتَهُ عامّةً وجعل في شريعته الكفاءةَ لذلك وهو سيدُنا ومولانا (مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ اللهِ) صاحبُ الشريعة الإسلامية ﷺ، فكانت الخلافةُ الإسلامية من بعده خلف النبوّة بلِ النبوّاتِ من عهد آدمَ أبِي البشرِ وأول نَبِيٍّ استخلفهُ اللهُ. وهذا وجهُ تسمية أَئِمَّةِ المسلمينَ بالْخُلَفَاءِ. ولذلكَ لم يُدْعَ بها قبلهم أحدٌ من الذين سبقوهُم من الأمم غيرَ أنبياءِ الله. ولقد كانت أولَ اسمٍ دُعِيَ به أَئِمَّةُ المسلمين؛ نظراً لذلك الأصلِ، فكان الأصحابُ بعد النبي ﷺ يدعون الخليفةَ الأولَ بخليفة رسولِ الله. حتى إذا تولاَّها عمرُ ﷺ كان أوَّلَ من دُعي بأميرِ المؤمنين إيجازاً وتخفيفاً. ومع اعتبار بقاء الأصل كما يُفْهَمُ من قوله فيما يروى عنه : لَوْ أُطِيْقُ الأَذَانَ مَعَ الْخِلِيْفَى[1] لأَذَّنْتُ[2].

هذا، وإذ ثبتَ لديكَ أنَّ الخلافةَ الإسلامية خلفُ النبوَّة بل النبوّات فندَّعي الآن إنَّها واجبةٌ وأنَّها قبلَ كلِّ واجبٍ دينيٍّ، ثم نثبتُ ذلك بما يفتحُ ا لله علينا من الآيات والبيِّناتِ من كتابه العظيمِ وحديثِ نبيِّه الكريمِ وأعمالِ الصحابة وأقوال العلماءِ والسادة الفقهاءِ وغيرِ ذلك مما ينهضُ حجةً من طريق النقلِ أو العقلِ فنقول:

---

[1] بخاء مكسورة ولام مشددة وألف مقصورة: بمعنى الخلافة. (حبيب).

قلتُ: مصدرٌ يدل على الكثرةِ، يريدُ به: من كثرةِ اجتهاده في ضبط أمورِ الخلافة وتصريف أعِنَّتها. لسان العرب: (خلف) ج ٤ ص١٨٣.

[2] لسان العرب: ج ٤ ص١٨٣؛ وقال: وفي رواية: (لَوْ أَطَقْتُ الأَذَانَ مَعَ الْخِلِّيفَي). بالكسر والتشديد والقصرِ؛ الخلافةُ.

فِي وُجُوبِ الْخِلاَفَةِ

أما إنَّها واجبةٌ: بمعنى أن عقدَها لمن يقومُ بها في الأمة واجبٌ، فمما اتفقت عليه الكلمةُ. وإنما الخلافُ في سبب الوجوبِ، فقالت طائفةٌ: انَّه العقلُ. وقالت أخرى: انَّه الشرعُ فقط. والحقُّ أن سببَ الوجوب كِلاَهُمَا: العقلُ والشرعُ.

فأما طريقُ العقل: فذلك ما اهتدى إليه أحدُ شعراء الجاهلية حين لا شَرْعٌ يستضيء بنوره من خلالِ تلك الظلماتِ ظلمات الوحشة والهمجية إلاّ ما أوحت إليه القريحةُ الشعرية من سماء الفطرة بمقتضى العقل البشريِّ فقالَ:

لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَ سُـرَاةَ ... وَلاَ سُرَاةَ إِذَا جُهَّـالُهُمْ سَـادُواْ

فالحقيقةُ التي يهتدي إليها من لا دليلَ له إلاّ الفطرة يجبُ أن لا يماري عاقلٌ في إنَّها مما يوجبهُ العقلُ بمجرد الالتفات إليها والتمعن فيها. ولذا قالوا: إن العقلاءَ في طبعهم التسليمُ إلى زعيمٍ يمنعُهم من التظالُم ويفصلُ بينهم في التنازع. والرئاسةُ طبيعيةٌ في البشر، بل حتى في الحيوان إذا ما تآلف وكان مُتجانساً، كما يشهدُ بذلك عينُ الشهود من الْمُجتمع لِمَن أعارَهُ طرفَ بصيرٍ، وقد أشار إلى مثله ابنُ خلدون.

وأما طريقُ الشرعِ: فقد ثبتَ فيه وجوبُ الخلافة بأصولِهِ الثلاثةِ: الكتابُ، والسنَّةُ، والإجماعُ. فأما الكتاب فإنه يقول: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[1] وبديهي أن الإطاعةَ فرعٌ عن وجودِ الْمُطَاعِ، والأمرُ للوجوب، فكيف يمتازُ الفرعُ على الأصل ويكونُ واجباً دونَهُ؟ بل في البحث عن الفرع على سبيلِ الأمرِ بوجوبه إشارةٌ إلى تأكيدِ تقريرِ الأصلِ، كأنَّه يقولُ: إن وجودَ أُولي الأمر أمرٌ معلومٌ لا مَحِلَّ للبحثِ عنه والتنبيهِ عليه، وإنما ننبهكم – معاشر المسلمين – إلى ما عسى أن يكون مجهولاً لديكم وهو أمر زائد على وجوبِ وجودِ أولي الأمر، ألا وهو وجوبُ إطاعتهم. وما أولو الأمر إلاّ الْمُتَأَمِّرُونَ علينا مِنَّا وهم الخلفاءُ.

وأما السُّنَّةُ: ففي صحيح البخاري الشريف عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيْرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْراً مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً**» وفي رواية: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيْرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيْتَةً جَاهِلِيَّةً**»[2] ففي هذا الحديث الشريف أكبرُ صراحة على وجوب الإمامة ووجوب الانضواء تحت لوائها حيثُ رتَّبَ على فقد المسلم ظِلَّها أكبر محذور وهي الميتةُ الجاهلية؛ لأن المعنى: أن مَنْ فارقَ الجماعة وخرجَ من السلطان ماتَ وكأنه لَم يدرك زمنَ النبوَّة. وأيُّ محذور أكبرُ من هذا لمن كان يؤمن بِمُحَمَّد وما جاءَ به مُحَمَّدٌ ﷺ؟ ثم لا دافع لهذا الْمَحذورِ إلاّ وجودُ الإمام وعدم الخروج عنه قيدَ شبرٍ. فَانْظُرْ أيُّها المسلمُ ماذا عسى أن يكون حينئذٍ للإمامة في دِينكَ من مراتب الوجوبِ.

---

[1] النساء/ ٥٩.

[2] رواه مسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين: الحديث (٥٥ و١٨٤٩/٥٦). والبخاري بلفظ مختصر في الصحيح: كتاب الفتن: الحديث (٧٠٥٣)، والحديث (٧٠٥٤) بلفظ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيْرِهِ شَيْئاً**».

وسيمرُّ بك من الأحاديث النبويَّة ما يثبتُ وجوبَ الطاعة لأولي الأمر فنقول فيها ما قُلنا في الآية الكريمة آنفاً من أنَّ الطاعة فرعٌ عن وجود الْمُطاعِ والبحثُ عن الفرع على سبيلِ الأمرِ بوجوبه إشارةٌ إلى تأكيد تقريرِ الأصل. فتكونُ كل تلك الأحاديث الشريفة مثبتة كذلك لوجوب وجود أولي الأمر، وما هم إلاّ الخلفاء.

وأمَّا الإجْمَاعُ: فقد اتفقت كلمةُ الأمة وأجمعت جماهيرُها على وجوب الإمامة في المِلَّةِ الإسلامية منذ قَبَضَ اللهُ نَبيَّهُ إليه حتى ساعتنا هذه. وهذه صحائف التاريخ الإسلامي إذا ما تصفَّحناها فلا نكادُ نرى الأمةَ خلت –على تعاقُب العصور واختلاف الأجيال– من خليفةٍ عقدت له البيعةَ وألقت إليه بالمقاليد. وهذا دليل للإجماع على وجوب الخلافة عمليٌّ أكبر عندي من الأدلة القوليَّة. ثم هذه كتب (الكلام)[1] وغيرُها مشحونةٌ بنقل العلماء الإجماعَ على ذلك. ولم أرَ من وصموه بالشذوذ عن الجمع في هذه المسألة إلاّ ما نقله الماورديُّ عن الأصمِّ: فكأنه لم يكن من القائلين بالوجوب[2]. وعندي أن هذه المخالفةَ من الأصمِّ ونقلها عنه فقط دون أن يؤثر عن غيره شيءٌ من ذلك مما يزيدُ المسألةَ تأكيداً وتثبيتاً، وذلك: أنَّ أمراً يَهُمُّ ألوف الألوف في مشارق الأرض ومغاربها بين طيات القرون وثنايا العصور إذا ما نقل اتفاق كلمتهم عليه ثم لم يُؤْثَرْ خلافٌ فيه إلاّ عن واحد بعينه فذلك دليلٌ على أن هناك استقراءً قد عجزَ أن يأتي بثانٍ لذاكَ الواحدِ من بين هاتيك الجموعِ العظيمةِ. ومثلُ هذا يعدُّ غايةً قصوى في التأكيد والتثبيتِ.

تَتِمَّةٌ: من الأئمةِ الذين نقلوا إجماعَ الأمة على ذلك حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ الغزاليُّ رَحِمَهُ اللهُ ثم أتى ببيانٍ موجز أشبهَ بالواسطة في العقدِ فرأينا من تَمامِ الفائدة أن نلتقطَ بعض لآلِيْهِ[3]:

قال رضوانُ الله عليه عندَ الكلامِ على الإمامةِ ووجوبِ نصبِ الإمام: إن فُسِّرَ الواجبُ بالفعل فيه فائدة وفي تركه أدنَى مضرَّةٍ[4] فلا ينكرُ وجوبُ نصبِ الإمام عقلاً لما فيه من الفوائد ودفع المضار في الدنيا. ولكنا نقيمُ البرهانَ القطعيَّ الشرعيَّ علىذلك ولسنا نكتفي بما فيه من إجماع الأمة، بل نُنَبِّهُ على مستند الإجماع فنقولُ: إنَّ نظام أمرِ الدين مقصودٌ لصاحب الشرع ﷺ قطعاً – أي نظامُ أمر الدين– لا يحصلُ إلاّ بإمامٍ مُطاع، فيحصلُ من المقدمتين صحةُ الدعوى وهي وجوبُ نصبُ الإمام.

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: إن نظامَ الدين لا يحصلُ إلاّ بنظام الدنيا، ونظامُ الدنيا لا يحصل إلاّ بإمامٍ مطاع، ينتجُ من هاتين المقدمتين أنَّ نظامَ الدين لا يحصلُ إلاّ بإمامٍ مُطاع، ونظامُ الدين واجبٌ فما لا يحصل إلاّ به واجب مثله.

ثم قال ﷺ: وليس الدينُ والدنيا ضِدَّيْنِ، ولا الاشتغالُ بأحدهما خرابٌ للآخر، فإنه كلامُ من لا يفهمُ ما نريدُ بالدنيا فيغلطُ ولا يمِّيزُ بين معاني الألفاظِ المشتركة. إن نظامَ الدين بالمعرفةِ والعبادةِ، ولا يتوصلُ إليهما إلاَّ بصحةِ البدنِ وبقاء الحياةِ وسلامة قدر الحاجات من الكِسْوَةِ والمسكنِ والأقواتِ، ثم الأمن هو آخر الأفات. والدنيا بهذا المعنى ليست ضِدَّ الدين، بل هي شرط له. وليس يأمَنُ الإنسان على روحِهِ وبدنِهِ وماله ومسكنِهِ وقوته في جميع الأحوالِ ولا في بعضها ولا ينتظمُ أمرُ الدين إلاّ بتحقيق الأمن. وإلاَّ فمن كان جميع أوقاته

---

[1] أراد كتبَ أصول الدين ككتابِ أصول الدِّين لعبد القاهر البغدادي، والمواقف للآيجي وغيرهما كثير. والناظر فيها يجدُ أنَّها كلها تبحثُ الإمامةَ على أنَّها ركنٌ من أركانِ الدين وأصلٌ من أصوله، فهي متفقة على هذا الأصل جميعاً.

[2] في الأحكام السلطانية: ص ٥؛ قال الماوردي: (الإمامة موضوعةٌ لخلافة النبوَّة في حراسة الدِّين وسياسة الدُّنيا – به – وعقدُها لِمن يقومُ بها في الأمة واجبٌ بالإجماع وإن شذَّ عنهم الأصمُّ).

[3] ننقل عن رسالته (الاقتصاد في الاعتقاد) بتصرف. (حبيب).

[4] وإيَّاهُ عَنَينا إذ قُلنا بالوجوب عقلاً وشرعاً في صدر البحث. (حبيب).

مستغرقاً بحراسةِ نفسه من سيوفِ الظَّلَمَةِ وطلب قوته من وجوه الغلبة فمتى يتفرغ للعلم والعمل وهما الوسيلة له إلى سعادة الآخرة. فَبَانَ إِذَنْ أنَّ نظامَ الدنيا، أعني مقاديرَ الحاجة شرطٌ لنظام الدين، ونظامُ الدنيا بالأمن على الأنفس والأموال لا يتم إلاّ بسلطان مُطاع كما تشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة وأن ذلك لو لم يتدارك بنصب سلطان آخر مُطاع دام الهرج وعمّ السيف وشمل القحط وهلكت المواشي وبطلت الصناعات، وكان كل من غلب سَلَبَ ولم يتفرَّغْ أحدٌ للعبادة والعلم إن بقي حياً والأكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف. وعلى الجملة فلا يتمارى العاقلُ في أن الخلقَ على اختلاف طبقاتِهم وما هم عليه من تشتُّت الأهواء وتباين الآراء لو خَلَوا ورأيهم ولم يكن رأي مُطاع يجمع شتاتَهم لهلكوا عن آخرهم. وهذا داءٌ لا علاج له إلاّ بسلطانٍ قاهر مُطاع يجمع شتات الآراء.

فبَانَ أن السلطان ضروري في نظام الدنيا، ونظام الدنيا ضروري في نظام الدين، ونظام الدين ضروري للفوز بسعادة الآخرة، والفوز بسعادة الآخرة هو مقصود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع التي لا سبيل إلى تركها فاعلم ذلك. انتهى كلام الإمام.

إِيْضَاحٌ

إنَّ أصولَ الدينِ التي يستندُ إليها أمر الشريعة الإسلامية أربعة: الكتابُ والسُّنَّةُ والإجماعُ ثم القياسُ. والكتاب هو الأصل: فإنما نأخذ بالسنة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[1] وقوله: ﴿**قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ الله**﴾[2]. وإنما نعتبر الإجماع تمسُّكاً بقوله: ﴿**وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[3]. وإنما أوجدنا القياس استدلالاً- على ما قالوا - بقوله: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾[4] (وعندي ليس فيها دليلٌ نظراً لسبب النُّزول فليراجع)[5]. ثم كلٌّ واحدة من هذه الأربعة يكفي وحده لإثبات حكم شرعي عند فقد ما تقدمه من قسمائه على نحو ما مرَّ ترتيبهن. أما وجوب الإمامة فقد ثبت -كما عرفتَ- بالكتاب والسُّنة والإجماع، فليت شعري أيُّ عذر لمن يتمارَى في ذلك؟ وهل له غير جهنم إذا ما تولى ولم يتبع سبيل المؤمنين، يصلى نارها وساءت مصيراً؟

وَأَمَّا إنَّها قَبْلَ كُلِّ وَاجِبٍ دِيْنِيٍّ[6]:- بمعنى أن النَّظَرَ في أمرها مقدَّمٌ على كُلِّ نَظَرٍ دِيْنِيٍّ-فلأن معظمَ المسائل في الدين الإسلامي من عبادات ومعاملات تتوقف صحته على وجود إمام للمسلمين، وما يتوقفُ عليه شيءٌ يجبُ أن يكونَ سابقاً لذلك الشيءِ مقدماً عليه ضرورةَ أنَّ المعلولَ لا يتقدمُ علَّته وأنَّ الأسبابَ تمشي أمام مسبَّباتِها، فهاتان مقدِّمتان ينتجُ عنهما أن النظرَ في أمر الخلافةِ الإسلامية مقدمٌ على كلِّ نَظَرٍ دِيْنِيٍّ.

أما المقدمةُ الثانيةُ فلا يستطيع أن يماري فيها من له أدنَى مسكة من تعقُّل، وأما المقدمةُ الأُولى فثابتة بما يؤخذُ من كُتبنا الدينية في الفقه والأصول والكلام مما لا يسعُنا استيعاب تفاصيله في مثل هذا المقام، ولكننا نذكِّر بالأُمَّهات من ذلك على سبيل الإجمال - والذكرى تنفعُ المؤمنين - فنقولُ:

إنَّ بِفَقْدِ الخلافة الإسلامية تبطلُ الولاياتُ، يبطلُ القضاءُ، تبطل العقودُ المناطةُ بالقضاءِ.

وإذا بطلَتِ الولاياتُ تعطلت الأحكام واختلت الإدارة وانفرط العقد من الهيئة الاجتماعية.

وإذا بطلَ القضاءُ تعطلت الحدودُ وماتت الحقوق واختلَّت الأنكحة.

---

[1] الحشر/ ٧.

[2] آل عمران/ ٣١.

[3] النساء/ ١١٥.

[4] النساء/ ٨٣.

[5] المراد في الآية النظرُ في فقهِ الواقع والتعمقُ في إدراكه بالتفحص والتحسُّس، وموضوعه نظرُ الربَّانيِّين من الولاةِ وأهل الخبرة والدراية، قال الطبريُّ: (الولاةُ الذين يكونون في الحربِ عليهم الذين يتفكَّرون فينظرون لِمَا جاءَهم من الخبرِ أصدقٌ أم كذب؟ أباطلٌ فيبطلونَهُ، أو حقٌّ فيحقُّونه؟ وهذا في الحربِ). أي ليس في موضوعِ النظر في النصوص الشرعية. وإلى هذا المعنى ذهبَ الشيخُ العبيدي، واللهُ أعلم.

[6] أما العقائدُ فهي مستثناةٌ من هذا العموم، وهذا بديهي؛كيف لا والوجوبُ تكليفٌ؛ والتكليفُ فرعٌ عن الإيمان ولا إيمانَ قبل العقيدةِ. (حبيب).

وإذا بطلتِ العقودُ غُلَّت الأيدي وسادَ الكسادُ في التصرف وتعطَّلَ كثيرٌ من معايش العبادِ.

بل نقولُ: بفقدِ الخلافةِ الإسلامية يَتَعَطَّلُ الموسمُ، فلا يحجُّ بيت الله، وتَخْفُتُ أصوات المنابر أيام الجمعة وفي الأعياد، فلا يُسعى إلى ذكرِ الله، ويغلقُ كثير من أبواب المساجد، فلا يذكر فيها اسمُ اللهِ.

ذلك بأن هاتيك المسائل في دين الإسلام تتوقفُ صحَّتُها على وجودِ خليفةٍ في المسلمينَ كما تُفْهَمُ تَفَاصِيْلُهُ من مواضعه في كتبِ الشريعةِ والدين. ومن أراد تمامَ الوقوفِ على ذلك فعليه بكتاب (الأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ) للإمامِ الماورديِّ رَحِمَهُ اللهُ.

إن هذه العنايةَ الكبرى وخوف الفتنة وتفاقُمِ الشُّرور وأمثال ذلك من البواعث التي حَدَتْ بمثل الإمامِ حُجَّة الإسلام ﷺ أن يرى التسامحَ في بعض شروط الخلافة ويأمُرَ غيره بذلك حتى قال–بعد كلامٍ أثبتَ فيه لزوم التسامح: فليهوِّن المستبعدُ لِمخالفتهِ المشهود – اســتبعادَهُ ولينْزِل من غلوائه فالأمرُ أهونُ مما يظنُّهُ.

ثم قالَ رَحِمَهُ اللهُ: ليت شعري من لا يساعد على هذا – أي التسامح – ويقضي ببطلان الإمامة عند فقد المتصف بشروطها فأيُّ أحواله أحسن: أن يقول (القضاةُ معزولونَ؛ والولاياتُ باطلةٌ؛ والأنكحةُ غير منعقدةٍ؛ وجميع تصرفات الولاة في أقطار العالَم – يريــد العــالَم الإسلاميَّ – غيرُ نافذةٍ، وإنما الخلق كلهم مقدمون على الحرام؟) أو أن يقولَ (الإمامةُ منعقدةٌ والولايات نافذةٌ بحكم الحال والاضطرار؟) فهو بين ثلاثة أمور: إما أن يمنعَ الناسَ من الأنكحةِ والتصرفاتِ المناطة بالقُضاةِ وهو مستحيلٌ ومُؤَدٍّ إلى تعطيل المعايش كلها ويفضي إلى تشتيت الآراء ومهلك الجماهير الدَّهْمَاءِ، أو أن يقول: إنَّهم يقدمون على الأنكحة والتصرفات ولكنهم مقدمون على الحرام؛ إلاَّ أنَّــه لا يحكم بفِسْقِهم ومعصيتهم لضرورةِ الحال، وإما أن يقول يُحْكَمُ بانعقادِ الإمامةِ مع فوات شروطِها لضرورة الحال، ومعلومٌ أن البعيد مع الأبعد قريب، وأهون الشرَّين خيرٌ بالإضافة إلى الآخر ويجب على العاقل اختياره. فهذا تحقيق هذا الفصل وفيه غنية عند البصــير عــن التطويل، ولكن من لم يفهم حقيقة الشيء وعِلَّتَهُ؛ وإنما يثبت بطول الأُلفَةِ في سمعه فإنه لا تزالُ النفرة عن نقيضهِ في طبعــه، إذ فطــامَ الضعفاء عن المألوف شديدٌ عَجَزَ عنه الأنبياءُ، فكيفَ غيرُهم؟. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ[1].

تَنْبِيْهٌ

إن أوضحَ دليلٍ على أن النظرَ في أمر الخلافة مقدَّمٌ على كلِّ واجب ما كان من أصحاب رسول الله ﷺ يوم السقيفة: فَإِنَّهُمْ رضوانُ الله عليهم ريثما توفَّى اللهُ نبيَّهُ ﷺ لم يكن منهم إلا أن اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة حتى أتمُّوا الأمر و لم يشغلهم عنه شاغل حتى ولا جهاز رسول الله ﷺ بل تركوا كل شيء وأهملوا كل شيء إلا ما كان من أمر الاستخلاف – أي نصب الخليفة– فما تمهلوا فيه ســاعة مــن زمان[2].

---

[1] يتكلم الإمامُ عن الإمامة ووجوبها في زمانهِ حيث لَم يتَّسع نطاقُ السياسة ولا كان أعداءُ المسلمين أُولِي بأسٍ شديد يتربَّصون بِهم الدوائرَ من حين إلى آخر كما في عصرِنا هذا؛ فكيفَ به لو شهدَ موقفَ المسلمين اليومَ مع دولِ الغربِ وفرطِ حاجتهم إلى اتحاد الكلمة ولَمِّ الشعث والانضواءِ تحت لواء واحد، فماذا عسى أن يقولَ؟ (حبيب).

[2] توفِّي سيدنا النبي مُحَمَّد ﷺ يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، ثم بايعَ الناسُ أبا بكرٍ ﷺ في سقيفة بني ساعِدَة بن كعبٍ الأنصاري في يومِ الاثنين الذي توفِّي فيه رسولُ الله ﷺ؛ لأن الصحابةَ كَرِهُوا أن يبقوا بعضَ يوم وليسوا في جماعةٍ. روى الطبري في تاريخه: ج ٢ ص٤٤٧: (قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: أَشَهِدْتَ وَفَــاةَ رَسُــوْلِ اللهِ ﷺ؟

تَكْمِلَةٌ

فِي وُجُوبِ طَاعَةِ أُوْلِي الأَمْرِ

إذا علمتَ أن نصبَ الإمامِ واجبٌ وأن النظرَ فيه مقدَّمٌ على كلِّ واجبٍ دينيٍّ، فاعلم أن طاعة ذاك الإمام واجبة كذلك. وقد مرَّ بك عرضاً ما أثبت لديك ذلك، ولكنا الآن نريد أن نتكلم فيه قصداً ونزيدك إيضاحاً وتنويراً، فنقول:

إن طاعةَ الإمام واجبةٌ عقلاً وشرعاً. أما عقلاً فلأن الغايةَ من نصبِ الإمام حفظ كيان الأمة وتقويم أودها بتنفيذ الأحكام فيها حسبما تقتضيه المصلحة ويقضي به شرع الله، وهذا لا يتم إلا بالسمع والطاعة، فإذا فقدا فقدت الغاية، ومباشرةُ العمل مع الرضاء بضياع الغاية منافٍ للعقل، وما كان منافياً للعقل وجب نقيضه، فثبت أن طاعةَ الإمام واجبة عقلاً.

وأما شرعاً فلأنَّ الله تعالى أمر بإطاعة أولي الأمر وقَرَنَ طاعتهم بإطاعة الله ورسوله، ومعلوم أن طاعة الله ورسوله واجبة فكذلك طاعة أولي الأمر واجبة، قال تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[1] ومن المقرَّر في علم الأصول أن الأمر للوجوب[2]. هذا ما جاء في كتاب الله الْمَجيدِ.

وأما سُنَّةُ رسول الله فقد روى هشامُ بنُ عروةَ عن أبي صالح عن أبي هريرةَ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**سَيَلِيْكُمْ بَعْدِي وُلاَةٌ فَيَلِيْكُمُ الْبَرُّ ببِرِّهِ وَيَلِيْكُمُ الْفَاجِرُ بِفُجُورِهِ، فَاسْمَعُواْ لَهُمْ وَأَطِيْعُواْ فِي كُلِّ مَا وَافَقَ الْحَقَّ، فَإِنْ أَحْسَنُواْ فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُواْ فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ**»[3].

فقد أمر ﷺ في هذا الحديث الشريف بالسمع والطاعة لولاة الأمر، والأمر – كما عرفتَ – للوجوب، ثم شدَّد في ذلك حتى لم يفرِّق فيه بين البِرِّ منهم والفاجر، وإنما جعل إحسانَ الْمُحسنِ منهم للأمة ولنفسه، وإساءة المسيء للأمة وعليها (أي على نفسه).

قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَتَى بُوْيِعَ أَبُو بَكْرٍ؟ قَالَ: يَوْمَ مَاتَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ. كَرِهُواْ أَنْ يَبْقَوْا بَعْضَ يَوْمٍ وَلَيْسُواْ فِي جَمَاعَةٍ) إنتهى. فلم تتعدَّ البيعة للأمير ثلاثة أيام.

أخرج البيهقي بسنده عن سالم بن عبيد، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ – حِيْنَ مَاتَ، ثُمَّ خَرَجَ – فَقِيْلَ لَهُ: يَا صَاحِبَ رَسُوْلِ اللهِ، تُوُفِّيَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ! فَعَلِمُواْ أَنَّهُ كَمَا قَالَ. ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: دُوْنَكُمْ صَاحِبَكُمْ؛ لِبَنِي عَمِّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ، يَعْنِي فِي غُسْلِهِ يَكُونُ أَمْرُهُ، ثُمَّ خَرَجَ، فَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُوْنَ يَتَشَاوَرُوْنَ، ثُمَّ قَالُوْا: انْطَلِقُواْ إِلَى إِخْوَانِنَا مِنَ الأَنْصَارِ، فَإِنَّ لَهُمْ فِي هَذَا الْحَقِّ نَصِيْباً، حَتَّى بَايَعُواْ أَبَا بَكْرٍ فِي السَّقِيْفَةِ. رواه البيهقي في السنن الكبرى: باب لا يصلح إمامان في عصر واحد: الأثر (١٧٠١٦).

[1] النساء/ ٥٩.

[2] في مثل هذا المقامِ الأمرُ للوجوبِ؛ لأنه من صيغةِ الأمر المطلق الذي لا يقبلُ التعددَ والمقابلَ له شيء واحدٌ فقط؛ وهو على العمومِ في أمور سياسة الرعيَّة. وإلا فإن مطلقَ الأمرِ يفيدُ الطلب فَانْتَبِهْ.

[3] رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن: سورة النساء الآية ٥٩: النص (٧٨٠٤). والدراقطني في السنن: كتاب الصلاة: باب صفة من تجوز الصلاة معه والصلاة عليه: الحديث (١) من الباب: ج ٢ ص٥٥. قال السبكي في تخريج أحاديث كتاب إحياء علوم الدين: النص (٣٣٨٧): إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: باب لزوم الجماعة: ج ٥ ص٢١٨: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالله بن مُحَمَّد بن عروة وهو ضعيف جداً. وقال في التعليق المغني على الدارقطني: عبد الله بن مُحَمَّد المدني: قال أبو حاتم الرازي: متروك الحديث، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات. له ترجمة في لسان الميزان: ج ٣ ص٣٣١: الرقم (١٣٧٤).

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِسْمَعُوْا وَأَطِيْعُوْا وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيْبَةٌ**»[1].

وفي هذا الحديث من فرطِ العنايةِ بوجوب السمع والطاعة بما أفادته (إنْ) الوصلية في قوله: «**وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ**» ما هو جدير بالتدبُّر، فكأنه يقول: إنكم ملزمون بالسمع والطاعة لأُولي الأمر منكم من حيث إنَّهم أُولو الأمر مع قطع النظر عن بقية العوارض كالشخصية والجنسية، حتى أنكم ملزمون بذلك فيما عسى أن يغلب عليكم الظن بخلافه كما إذا استعمل عليكم عبد حبشي، لأنَّ النفوسَ عادةً تأنفُ من قَبُولِ الإمرةِ والانقيادِ لحبشيٍّ وُسِمَ بالعبوديةِ، لا سيما بالإضافة إلى الذين كانوا في زمن الخِطاب لما كانوا عليه من فرط الإبَاءِ والشَّمَمِ ثم التهاون والاحتقار لمن كان موصوفاً بتلك الأوصاف حسب العُرف والعادة بينهم، حتى إنَّهم كانوا لا يلحقون بالنسب من أولاد صُلبهم من قذفته رحمٌ من العنصر الأسود، ولمثل هذا أكد المعنى بقوله: «**كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيْبَةٌ**» دفعاً لِمَا يتوهم من إرادة الْمَجازِ تنصيصاً على المراد.

وغايةُ الغايات في هذا الباب ما في صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت ﷺ، قال: دَعَانَا النَّبيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيْمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «**أَنْ بَايَعْنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بُوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيْهِ بُرْهَانٌ**»[2].

فإن للبيعة في هذا الحديث صورةً عامةً تقطعُ دابرَ كلِّ فسادٍ حيث شرطُ السمع والطاعة حتى في حالة الأثرة، ثم حسم مادة النِّزاعِ بأن لم يجعل سبيلاً إلى منازعة الأمر أهلهِ إلا بكفرٍ بَوَاحٍ فيه برهانٌ من اللهِ.

تَنْبِيْهَانِ

الأَوَّلُ:

في هذا الحديث الشريف وفي آية ﴿**أُوْلِي الأَمْرِ**﴾ أمرٌ عظيمٌ يجبُ على كل مسلم يؤمن بالله وبكتابه العزيز أن ينتبهَ له مهما كان في سُبات عميق فيفقهَ معناه ويتدبَّر مغزاهُ وإنه بذلك لحقيقٌ، ألاَ وهو قيدُ ﴿**أُوْلِي الأَمْرِ**﴾ في الآية الكريمة بقوله: ﴿**مِنْكُمْ**﴾ خطاباً للمسلمين؛ وكذلك الاستثناءُ في الحديث الشريف بقوله: «**إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بُوَاحاً**» فإنه يُفهم منهما أمران جديران بالاعتبار، أحدهما: أنَّ مَن يَلِي أمر المسلمين لا يجوز شرعاً أن يكون غيرَ مسلم. وثانيهما: أن غيرَ المسلم لا تجبُ طاعته على المسلمين إذا ما وَلِيَ من أمرهم شيئاً. فَاعْلَمْ هذا وعضَّ عليه بالنواجذ أيها المسلمُ حتى يمرَّ بك ما لأجلهِ يساقُ الحديث.

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب الأحكام: باب السمع والطاعة للإمام: الحديث (٧١٤٢).

[2] رواه الإمام مالك في الموطأ: كتاب الجهاد: باب الترغيب في الجهاد: الحديث (٥) منه. والإمام أحمد في المسند:ج٣ ص٤٤١ و ج٥ ص٣١٤ و٣١٦ و٣١٩ و٣٢١ والبخاري في الصحيح: كتاب الفتن: باب قول النبي ﷺ: «**سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُوْراً تُنْكِرُوْنَهَا**»: الحديث (٧٠٥٦). ومسلم في الصحيح: كتاب الإمارة: باب وجوب طاعة الأمراء: الحديث (٤١ و٤٢/١٧٠٩). والنسائي في السنن: كتاب البيعة: باب البيعة على السمع والطاعة: ج٧ ص١٣٧-١٤٠. وابن ماجه في السنن: كتاب الجهاد: الحديث (٢٨٦٦).

الثَّانِي:

إن ما ثبتَ وجوبهُ من السمع والطاعة لأئمة المسلمين يتناول عمومه من يولُّونه شيئاً من الأمرِ تنفيذاً أو تفويضاً ثم يوجِبُون له السمعَ والطاعة في ذلك؛ لأن الخرقَ في طاعةِ مَنْ يوجبونَها لهم خرقٌ في طاعتهم، فينتقضُ الأمر، ومن القواعد المنطقية أن الموجبةَ الكلية تنتقضُ بالسالبةِ الجزئية[1].

[1] القضية الكليةُ الموجبة (جميعُ الطاعة واجبٌ) يقابله القضية الجزئية السالبةُ (بعض الطاعةِ ليس بواجبٍ) فالقضية الثانية سلبيةٌ جزئية نقيضُ الكلية الموجبة. فتثبتُ الأولى لصدقِها حتماً؛ وتُرَدُّ الثانية لكذِبها. لأن الخرقَ في طاعة خرقٌ للطاعة؛ فينتقضُ الأمر كله إن لَم تُردَّ، وتفصيلهُ:

القضية		مقابلتها
جميع الطاعة واجب	يقابلها	بعض الطاعة ليس بواجب

هاتان قضيَّتان اتحدَ موضوعهما ومحمولُهما من كل الوجوه، ولكن اختلفَ الكيفُ فيهما إيجاباً وسلباً. فالقضيةُ الأولى صادقةٌ حتماً بضرورة الشَّرع. فلزم كَذِبُ القضيةِ الثانية حتماً؛ لأنَّهما لا يمكن أن تكونا صادِقَتين معاً. ولا يمكن أن تكونا كاذِبَتين معاً، فبينهما تناقضٌ قطعاً. فعلى هذا لَزِمَ عقلاً وجوبُ طاعة أولِي الأمر من أئمة المسلمين، وإلا حصلَ الفسادُ لا محالة. قلتُ أيضاً: ويكفي الحجةُ الشرعيَّة في البابِ ويُستغنَى عن الاستدلالِ المنطقيِّ.

الْفَصْلُ الثَّانِي

فِي أَنَّ الْخِلاَفَةَ الإسْلاَمِيَّةَ قَائِمَةٌ بِالدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ

قامَ لديكَ الدليلُ القاطعُ والبرهانُ الساطعُ أن الخلافةَ الإسلامية خلفُ النبوَّة بل النبوَّات، وأنَّها واجبةٌ في الشرع الْمُحَمَّدِيِّ قبل كلِّ واجبٍ دينيٍّ، والآن نقول: إنَّها قائمةٌ بالدولة العثمانية وتثبت هذه الدعوى من طريقين: الشرعُ والسياسةُ. ولكن ذلك يتوقف على تمهيدٍ وبيانٍ يكونان بمثابة مقدِّمتين ينتج عنهما المطلوب، فأما التمهيدُ ففي كيفية انعقاد الإمامة شرعاً، وأما البيانُ ففي انعقادها لآل عثمان وتمثلِها في الدولة العثمانية[1].

التَّمْهِيْدٌ

تنعقدُ الإمامةُ من وجهين؛ أحدهما: باختيار أهل العقد والْحَلِّ، والثاني: بعهد الإمام من قبل. واختلف العلماء في عدد من أن تنعقد بِهِم؛ فقالَ أكثرُ الفقهاءِ والمتكلمين من أهل البصرة: أقل من أن تنعقد بِهِمْ الإمامة من أهل الحلِّ والعقد خمسةٌ، استدلالاً بأمرين؛ أحدهما: أن بيعةَ أبي بكر ﵁ انعقدت بخمسة، وهم عمر بنُ الخطابِ وأبو عبيدة بن الجراح وأُسيد بن حُضير وبشير بن سعد وسالم مولَى حذيفة ﵁، اجتمعوا عليها ثم بايعهم الناس فيها. والثاني: أنَّ عمرَ ﵁ جعل الشورى في ستة ليعقد لهم برضى الخمسة...[2] ومستند هذا القول وجيهٌ: إذ كان أمراً واقعاً ولأنه تَمَّ عمله وتكرَّر من كبارِ الأصحابِ وفي جمهورهم من غيرِ نكرانٍ.

وقال آخرون من علماء الكوفة: تنعقدُ بثلاثةٍ يتولاها أحدُهم برضى الاثنين ليكونوا حاكماً وشاهِدَين كما يصحُّ عقد النكاح بوليٍّ وشاهدين... وهذا القولُ ليس له صورةٌ تطابقه في الخارج ولم يستند إلى أمرٍ واقع في الصدر الصالح ليقاس عليه، والقياسُ فيه على عقد النكاح قياسٌ مع الفارقِ.

وقالت طائفة أخرى: تنعقدُ بواحدٍ؛ لأنه حكمٌ؛ وحكمُ الواحد نافذٌ، وقد قالَ العباسُ لعليٍّ رضوان الله عليهما: (أُمْدُدْ يَدَكَ أُبَايِعْكَ فَيَقُولُ النَّاسُ عَمُّ رَسُولِ اللهِ بَايَعَ ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ فَلاَ يَخْتَلِفْ فِيْكَ اثْنَانِ...). وفي مستند هذا القول خصوصٌ ربما يمنعُ من القياس عليه بدليل قوله: فيقولُ الناس:(عَمُّ رَسُولِ اللهِ بَايَعَ ابْنَ عَمِّهِ) وعلى هذا الخصوص بَنَى قولَهُ: (فَلاَ يَخْتَلِفْ فِيْكَ اثْنَانِ)[3].

وقالت طائفةٌ: لا تنعقد إلا بجمهورِ أهل العقدِ والحلِّ من كلِّ بلدٍ ليكون الرضاء به عاماً والتسليم لإمامته إجماعاً.. قالوا:وهذا المذهب مدفوعٌ ببيعة أبِي بكر ﵁ على الخلافة باختيار من حضرها ولم يَنتظر ببيعتهُ قدومَ من غاب عنها.

---

[1] انتهت الخلافة العثمانية بإعلان إلغائها في ٣ مارس ١٩٢٤م أي بعد زمن طبع هذا الكتاب بثماني سنوات.

[2] الأحكام السلطانية: ص٧.

[3] المصدر السابق.

وأما انعقادُها بعهد الإمام من قبل فَقَدْ قالوا: إنه مِمَّا انعقدَ عليه الإجماعُ على جوازه ووقع الاتفاقُ على صحته لأمرين عمل المسلمون بهِمَا و لم يتناكروهما، أحدهما: أن أبا بكر عَهِدَ بها إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فأثبت المسلمون إِمَامَتَهُ بعهده. والثاني: أن عمر ﷺ عَهِدَ بها إلى أهلِ الشُّورى فقبلت الجماعة دخولَهم فيها وهم أعيان العصر وخرجَ باقي الصحابة منها اعتقاداً بصحَّة العهدِ بهَا، وقال علي للعباس رضوان الله عليهما حين عاتَبَهُ على الدخول في الشُّورَى، قال: (كَانَ أَمْراً عَظِيْماً مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِيْنَ لَمْ أرَ لِنَفْسِي الْخُرُوجَ مِنْهُ...)[١] فصارَ العهدُ بالخلافة إجماعاً في انعقادِها.

الْبَيَانُ

مَنْ قَرَأَ مِنَ التَّارِيْخِ ما حُفِظَ بين دفَّتيهِ عن الخلافةِ الإسلاميةِ وأَعْمَلَ الفكرَ وأمعنَ النظرَ فيما تعاقبَ عليها من الأطوار والأقدار في جوف العصور الخالية رأى العجبَ العُجَابَ والأمر الذي تحار فيه أولوا الألباب: رأى مضحكات ومبكيات ومبشِّرات ومُنذِرات وأنواراً وظلمات، رأى صدوراً نَاءَت بأعجازها وأعجازاً زواها العجزُ عن صدورها فحدِّث ثَمَّةَ ما شِئتَ عن مُعجزاتٍ ومعجزاتٍ، لا سيما إذ ينتهي بك النظرُ إلى ما صارَ إليه أمرُ الخلافة في أواخر الدولة العباسية، فلا ترى ثَمَّةَ إلا طيفَ خيالٍ ولمعةَ آل، شيخاً فانياً أو طفلاً عليلاً ورسماً بالياً أو شبحاً ضئيلاً: سلطانٌ في أغلال الأسرِ وحاكمٌ لا ينفذُ له أمرٌ، خليفةٌ في قاعة ولا سمعَ ولا طاعةَ إلا يداً تُقبَّلُ واسماً يُتْلَى على المنابر ويُرَتَّلُ. وقد عرفتَ أن هذا مُنَافٍ لحكمة الاستخلاف من غيرِ خلاف.

فَأَذِنَ اللهُ بالشباب بعدَ الهرم وبالصحةِ بعد السَّقمِ وكان ما كان من أمرِ ساكن الجِنان السلطان سليم خان[٢] فبعثَ إليه بمفاتيح الحرمين الشريف محمدُ أبو البركات وهو في مصرَ فكان أوَّلَ من لُقِّبَ بخَادِمِ الْحَرَمَيْنِ من آلِ عُثمان ثم بايعَهُ بالخلافة تخلِّياً عنها المتوكلُ على الله الثالث آخرُ الخلفاء العباسيَّة في جامع (آيَا صُوفِيَا) على ملأ الأشهَادِ من رجال الْمُلْكِ وعامَّة المسلمين فكان أولُ خليفة من تلك الأسرةِ الطيِّبة وذلك عام ٩٢٢[٣] ثم ما زالت في عقبهِ حتى الآن ولا تزالُ كذلك إن شاء الله إلى آخر الدوران.

إذا تمهَّد لديك ما مهدنا واستبان لكَ ما بيَّنا فنقول: إنَّهُما مقدمتان تثبتان لديك مبدأ الخلافة الإسلامية في هيكل السلطنة العثمانية من كِلا الوجهين اختيار أهلِ العقدِ والحلِّ، وعهد الإمام من قبل.

أما اليومَ فهي منعقدةٌ حتى بالجماهير من أهل البلدان مما لم يسبق له نظيرٌ في التاريخ الإسلامي فكان على أكملِ وجه وأتم مثالٍ لانعقادها من قِبَلِ نوَّاب الأمة الموفَدين من الأطراف والأكناف بانتخاب العامة والخاصة من أفرادها. وهي غايةٌ في الكمال أولُ من اكتسى رداءَ بَهَائِهَا جلالةُ الخليفة الأعظمُ السلطان الغازي مُحَمَّدُ الخامسُ الملقب بالرشاد أسبغَ الله عليه نِعَمَهُ وآلاءه وأيدَهُ بروح منه

---

[١] الأحكام السلطانية: ص١٠.

[٢] السلطانُ سليمُ خان: هو سليمُ الأول بن يزيد بن محمَّد الفاتح: تولَّى السلطنةَ حين تنازلَ له أبو يزيد الثاني بن محمَّد الفاتح، (فكان من أعظمِ سلاطين آلِ عثمان، وأكثرهم انتصاراً وفتحاً، مع وَلَعُهُ بالمطالعة والأدب). صحوةُ الرجل المريض: ص٤٠.

[٣] أو (٩٢٣) من الهجرة الموافق (١٥١٧) ميلادية، وماتَ السلطان سليم خان بعد ثَمانية أعوام من حُكمه، وخلفه سُليمان القانوني. ينظر: صحوةُ الرجل المريض: ص٤١.

وقَهَرَ بسيفِ جبروتهِ أعداءَهُ[1].

ثم أزيدُكَ تنويراً في هذا الشأن وذلك أن الخلفاء من آل عثمان تتأكد بيعتهم في كل عام، فإن الذي نسميه بعيد الجلوس تـذكاراً ليـوم انعقادها، وكذلك ورود رسائل التَّبريكِ ووفود التهنئة من الشعوب الإسلامية في الأقطار السائرة، وتلاوة الخطب هنالـك في الجمعـة والأعياد باسم سلطان الدولة العثمانية، وإنابة (أمير الموسم) من قبل جلالته في الحجِّ الشريف حيث يحشر المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، كلٌّ ذلك بيعةٌ له بالخلافة الإسلامية، فمن عمق النظر من هذه الوجهة رأى أن الخلافةَ الإسلاميةَ متمثلةٌ في السلطنة العثمانية باختيار المسلمين كافة في كل أنحاء المعمور.

فناهيك بخلافةٍ تنعقدُ بالعهد أولاً، ثم باختيار أهل الحل والعقد ثانياً، ثم ببيعة الجماهير من منتخبي البلاد ثالثاً، ثم باختيارِ عامةِ المسـلمين رابعاً، على حين أن الشرعَ يكتفي لنصب الإمام ويفرض طاعته بواحدٍ من هذه الأربعة، فكيف بها وهي مجتمعة؟ و لم يتسنَّ اجتماعهـا لخليفة على هذا النسق الأكملِ كما تسنَّى لجلالة إمام الوقت خليفتنا الأعظم الغازي محمد الخامس الملقب برشاد وَفَّقَهُ اللهُ إلى ما به خيرُ الأمةِ وهدانا في ظِلِّهِ إلى سبيلِ الرشادِ[2].

تَنْبِيْهٌ

معنى قولِ العلماءِ من الفقهاءِ والمتكلمين (إنَّ الْخِلاَفَةَ تَنْعَقِدُ بِكَذَا وَبِكَذَا) إنَّها مَتى تمَّ عقدُها على هذه الصورة وجبت طاعة من عقدت له، فمن رجع عُدَّ ناكثاً، ومن أبَى كان خارجاً وجاز للخليفة قتالهم حتى يفيئوا لأمر الله، كما كان من أمر عليٍّ عليه السلام في وقعة الجمـل وحرب صفين: فَإِنَّهُ قاتل الذين بايعوه ثم نازعوه وعدَّهم ناكثين وحارب الذين لم يبايعوه و لم يطيعوه وعدَّهم خارجين وكان معه معظمُ الصحابة رضوان الله عليهم في الأولى، وكلهم في الثانية، يؤيدون رأيه ويعزِّزون سلطانه بمقارعة السيوف وخوض غمار الحتوف، وهـم نجوم الاهتداء ومصابيح الاقتداء. وما كان انعقاد الخلافة لعليٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ إلا بصورة واحدةٍ وهي مبايعةُ أهل الحلِّ والعقد.

بعدما ثَبَتَ لديكَ من طريق الشرع أن الخلافةَ الإسلاميةَ قائمةٌ بالدولة العثمانية، فالآن نثبت هذا من طريق السياسة كذلك؛ فنقول:

لا يجهلُ من له أَدنَى وقوفٍ على ((حقوق الدُّول)) وأحوالِ العصر ومجاري السياسة فيه أن الحكومات بعضهنَّ أسرَى بعض في التطـوُّر وإثبات الوجود، لاسيما بالإضافة إلى الدولِ المتعاهدة وهي التي تسمَّى بالدول العُظمى وإحداهُنَّ الدولة العثمانية: فالحكومـةُ الـتي لا تصادِقُ هذه الدول على استقلالها وأنَّها في مصافِّ الحكومات لا يمكنها أن تعيشَ مستقلة تُمثلها رايةٌ خاصة ينطق بلسانها سفيرٌ عـام تخفق من فوق رأسه في العواصم، فإن شاءت مثَّلَتْ حرباً وإن شاءت مثَّلت سِلْماً. وكذلك الحكومةُ التي لا تعترف لها الدولُ بالحمايـة علىقوم ما لا تستطيع أن تداخل في شؤنهم كيما تطالبَ لهم بحقٍّ أو تستطلع لهم حقيقة دفاعاً عنهم أو تعزيزاً لشوكتِهم، جلباً لِمَغنمٍ أو دفعاً لِمَغْرَمٍ. ثم الْحَقُّ ابنُ القوةِ والحقيقةُ بنتُ العلمِ.

---

[1] محمَّدُ الخامس الملقب برشاد؛ محمَّدُ رشاد الخامس؛ الخليفةُ السابع والعشرين من خلفاء بني عُثمان، تولَّى الخلافة بعد خلعِ السلطان عبدالحميد الثانِي.

[2] محاولةُ مخلصٍ مثل الشيخ العبيدي أن يوقدَ النار في الرَّماد؛ وقد فاتَ الأوانُ.

أما الدولةُ العثمانيةُ فلها هذه المميِّزات من بين الحكومات الإسلامية: فإنَّها داخلةٌ في معاهدة الدولِ الأوربية. والقومُ يعترفونَ بعلاقتــها المقدسَّة الدينية مع الشعوبِ الإسلاميةِ في سائرِ الأقطار. وكذلك الشعب العثمانيُّ أوسعُ الشعوب الإسلامية عِلْماً وأكبرُها وقوفاً علــى روح العصر وأشدُّها تضَلُّعاً في وجائبهِ ومقتضياتهِ. ثم الدولةُ العثمانية أكثرُ عدداً وأوفر عُدَّةً[1] وأشدُّ قوة وأوفَى مَنَعَةً من غيرهــا مــن الحكوماتِ الإسلامية (لَوْ أَنَّ أَعْدَاءَ هَذَا الدِّيْنِ قَدْ أَبْقَواْ لأَبْنَائِهِ الْبَائِسِيْنَ حُكُومَاتٍ).

ولِمثل هذه البواعث كان للدولةِ العثمانية حقُّ التداخل في شؤونِ المسلمين الذين فصلَتْهم عنها الحدودُ الجغرافية ولكن قلوبَهم مرســومةٌ ضمن خريطتها الدينية بالرغم من كلِّ قوةٍ تتمثل في لَعْلَعَةِ المدافع وفرقعةِ القذائفِ وبريقِ السيوف.

فالخلافةُ الإسلاميةُ قائمةٌ بالدولةِ العثمانيةِ سياسيّاً أيضاً كما أنَّها متمثلةٌ فيها شرعاً.

[1] في الأصل المطبوع: (عدداً) والمناسب (عدة).

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِي أَنَّ دَوْلَةَ الْخِلاَفَةِ الإسْلاَمِيَّةِ إِذَا زَالَتْ بِزَوَالِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فَلَيْسَ فِي الإمْكَانِ قِيَامُ أُخْرَى مَكَانَهَا[1]

الخلافةُ الإسلاميةُ روحٌ ديني في جثمان سياسيٍّ، وما جثمانُها إلا الدولة العثمانية. ومما لا ريب فيه أن الجسد إذا توالت عليه الأمراضُ وتمادت فيه العللُ و لم يتدارك أمره نطسُ حاذقٍ[2] وممرضٌ مشفق تزلزلت أركانهُ وتضعضع بنيانهُ فلا يزال يضمحل ويتلاشى شيئاً فشيئاً حتىإذا فقد قوته الطبيعية و لم يبقَ فيه من رمق تطايرت ذرَّات الروح في مراكز الحياة فيه. وهكذا يكون الموت إذ لا بدَّ للروح من مسكن تأوِي إليه. ثم ليس للروح من عوض، وأنَّى لها الرُّجعى إذا تفسخت الأشلاءُ، والاصطبارُ أشدُّ من النارِ ليوم البعثِ والنشورِ.

كذلك مثلُ الخلافةِ الإسلاميةِ والدولة العثمانية : تزولُ تلك بزوال هذهِ – لاَ قَدَّرَ اللهُ – ثم ليس في الإمكانِ قيامُ أخرى مكانَها.

أما زوالُ الخلافةِ بزوال هذه الدولةِ –أعاذنا اللهُ معاشرَ المسلمين من ذلك– فلأنَّها قائمةٌ بِها كما عرفتَ وزوالُ الشيء بزوالِ مقوِّمه من الأمور الطبيعية التي لا تحتاجُ إلى إثبات وبيان. وأما أنَّها إذا زالت فليس في الإمكان قيامُ أخرى مكانَها فذاكَ ما نريدُ إثباته الآن فنقول:

الخلافةُ صورةٌ مقدسةٌ ومثالٌ بديعٌ كما عرفت؛ فلا بد من دولةٍ قويةِ الشكيمةِ، بعيدة الغَوْرِ، مترامية الأطرافِ، متينة الأركان، مهذبةِ الحواشي، مستقلةِ الإرادةِ، صالحةٍ لأن تكون مرآةَ التشخيص لتلك الصورة المقدسة وذاك المثال البديع. وتأسيس دولة إسلامية بهذه الأوصاف في هذا العصر مع ما عليه من التطورات السياسية تكليفٌ للطبيعة بما فوق الطبيعة مما يكادُ يُعَدُّ رابع المستحيلات وذلك لأمرين: داخليٍّ وخارجيٍّ.

أَمَّا الدَّاخِلِيُّ:– ونعني به الهيئةَ العامةَ من العالَم الإسلامي – فلأن الحصولَ على الشيء مشروطٌ بالاستعداد له والقابلية لتلقِّيه. وهذا الشرطُ مفقودٌ في المسلمين بالإضافة إلى الغاية المطلوبةِ. وإذا فُقِدَ الشرطُ فُقِدَ المشروطُ.

أَقُولُ هَذَا بِكُلِّ أَسَفٍ وَلَوِ اسْتَطَعْتُ لَكَتَبْتُهُ بِدُمُوعٍ مِنْ دَمٍ بَدَلاً مِنَ الْمِدَادِ.

---

[1] يتكلم المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ بإحساسٍ مُرهف وتفكيرٍ حاذق مبصرٍ لِمَا وراءَ الجدران، وببصيرة الرائي لِما لا يراهُ غيره؛ فهو رائد نَهْضَةٍ وقائدُ فكرٍ، يحذِّر الأمةَ من الخطر الذي يهددُ دولةَ الخلافةِ في زمانه، فهو لا يبحثُ موضوعَ الخلافة من جهة المنهاجِ، حيث تقدَّم مفهومهُ المستنير لها وأن الأمرَ رضا بما هو كائنٌ مع التفهُّم للضرورةِ لا التسليم المطلق. وهنا يتكلمُ من جهة الحربِ على ذات الخلافة ممثلة المسلمين في العالَم بوصفها نظاماً سياسيّاً يريد أعداؤهُ هدمه، وقد حصلَ ما حذَّرَ منه، والاستعانةُ بالله على النهوضِ من جديد، فافهم أيُّها النابهُ الفكرة من مرآةِ التذكرة والتاريخ.

[2] رَجُلٌ نَطْسٌ: عَالِمٌ بِالأُمُورِ حَاذِقٌ؛ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَدَقَّ النَّظَرَ فِي الأُمُورِ وَاسْتَقْصَى فِيْهَا، فهو نَطِيْسٌ وَمُتَنَطِّسٌ. لسان العرب: (نطس) ج ١٤ ص١٨٥.

إنَّ الاستقلالَ في الحياةِ هو الحياةُ وإنه لأمرٌ عظيمٌ. وأعظمُ منه للأمة التي تريدهُ أن يكون لها النصيبُ الأوفى من أطوارِ العُسْرِ وما ينـــزع إليه في مناهج الحياة. والعصرُ الذي نحن فيه عصرُ عِلْمٍ وَفَنٍّ، فبخار وكهرباء، فابتداع واختراع، فاقتصاد واستعباد. هذه مناهج العصـــر الحاضر وأطوارهُ، وما أراني أزيدك علماً إذا قلتُ: إنَّ المسلمينَ من كلِّ ذلك محرومون، فأنَّى لهم أن يُضْرِمُوا ناراً من غير شَرَرٍ؟ وأنَّى لهم أن يستنْزلوا غيثاً من غير سَحَابٍ؟

لو كان فيهم استعدادٌ لمثل ذلك لظهرت في عالَم الوجود آثارهُ: هذه الأمةُ المسيحية لا يزيدهم عددها غيرَ شيء يسيرٍ ولها من الـــدول والحكومات ما يُجهد تعدادُه، ثم في الوقت نفسهِ لا تكادُ تجد شعباً إسلامياً حدَّثَتْهُ نفسهُ أن يستيقظَ من رقادهِ ليتمتعَ بمثل تلك الحقوق الطبيعية ويحصلَ على حياة مستقلة سَلَبَهُ رداءَها أعداءُ الإنسانيةِ وأعداءُ دينهِ المبين.

الإيجادُ صعبٌ والتجديدُ أهونُ منهُ. وقد كان للمسلمين حكومات متعددة شاركت العدو في الجناية على نفسها حتى طواهـــا الزمـــانُ ودخلت في خبر كان، فأرِني منهنَّ حكومةً واحدة انقضَّت دعائم مُلكِها ثم تمكنت من حفظِ الأنقاض وتجديد البناء. أَمْ مِنَ الْمَعْقُولِ أن تستسهلَ البدء لديك بينما تعترفُ بتعذرِ الإعادة عليك؟

إنَّ مَنْ عَجَزَ عن حفظ ما في يده فهو إيجاد ما في طيّ الغيب أعجز، فإنْ عَجَزَ المسلمون –فرضاً لا قدَّرَ اللهُ– عن حفظ خلافتهم وهـــي راسخةُ الأركان شامخة البنيان، فهل من الروية أن يطمعوا في تأسيس أخرى مكانَها لم يُعرف لها اسمٌ في خريطة الوجود؟

الْمُسَبَّبَاتُ مَنُوطَةٌ بِأَسْبَابِهَا، فإذا عجزَ المسلمُ عن حفظ كيان الخلافة ولديه أسبابُ الذَّبِّ عن حوضِها والدفاع عن حوزَتِها فكيف تراه يستطيع إيجاد كيان لها وليس لديه ما يعوز ذلك من الأسباب؟ أيجبن عن صون ما قد تأسَّسَ وتَشَيَّدَ منذُ نَيِّفٍ وستة قرون ثم يستبســـلُ على أنياب الأفاعي تنهشه وبين أيدي الذئاب تقضمُه قضماً؟

تلك أباطيلُ الذين يخدعونَ الناس وتلك تضاليلُ الذين يجهلون أنفسهم أَنَّهُمْ هُمُ المخدوعونَ.

وأَمَّا الْخَارِجِيُّ:– فإنك تعلمُ أن مجاري السياسة في زماننا هذا غيرُها فيما غَبَرَ من الأزمنة الخالية يوم كان الرجلُ يرى في نفسه ميـــزة على قوم تُؤَهِّلُهُ للإمرةِ فيهم والرئاسة عليهم لِشِدَّةِ سَاعِدٍ ووفرةَ؛ مساعد؛ أو سخاءِ كفٍّ وكثرةِ مال، فإذا به قد استصرخَ بَنِيْهِ وعشيرته وذويه ومنَّى نفسهُ عظمةَ الْمُلْكِ وجبروتَ السلطان، وإذا بالقومِ قد أجابوا الدعوةَ ولبَّوا الصيحةَ فتكوَّنَ عرشٌ وثبِّتَ نَقْشٌ وشَمخ أنفٌ واستضاءَ تاجٌ.

أما اليومَ: فالأمةُ ذَاتُ الْحَوْلِ وَالطَّوْلِ والعَدد والعُدد والثراء والكبرياء، لا يُجديها نفعاً دَوِيُّ المدافع وصلصلةُ الحديد ولا الأصفرُ الرَّنَّان والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والجواهر واليواقيت لِرُسُوخِ قَدَمِهَا في مَصَافِّ الدول ومعاهد السياسة ولِتُمَتِّعَ أبناءَها إذا ضربوا في الأرض بما لَهم من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما لَم يمتزج بهاتيك الأصوات من جبروتِها صريرُ الأقلام على الطـــروسِ ونقرُ الرمالِ على السطور للمصادقة على ذلك من الدول المرتبطة بالعهود والمقيَّدة بالقيود تحت نظامٍ خَاصٍّ وعلى نَهْجٍ مَحْدُودٍ كمـــا سبقت لنا الإشارةُ إليه.

ألا ومَن كان هو العاملُ على موتِكَ فمن المستحيل أن ينقُضَ ما أَبْرَمَتْهُ يداه فيعضِّدُكَ في التماس الحياة. ألا **وإنَّ غَايَةَ السَّذَاجَةِ وَالْغُرُورِ**

أَنْ تَعْتَمِدَ إِلَى يَدٍ قَتَلَتْكَ عَمْداً وقَبَرَتْكَ قَصْداً فَتَلَتَمِسُ لَدَيْهَا النُّشُورَ!

كذلك مَثَلُ المسلمين ومَثَلُ الدُّول الأوروبية: أنه من المستحيلِ أن تأخذَ بيدهم لإحياءِ حقٍّ هي أَمَاتَتْهُ وإماتةِ باطلٍ أَحْيَتْهُ، لا سيما وهي تعتقدُ أن **حَيَاتَهَا بِمَوْتِهِمْ** وَقُوَّتَهَا بِضَعْفِهِمْ وَسعدُها بشقائهم وعزَّها بذُلِّهم وثراءَها بفقرِهم كأنَّها وإياهم كفَّتا ميزان إذا ارتفعت واحدةٌ انخفضت الأخرى، فاصرُخْ يومئذ إن شئتَ: (إِذَا كَانَ خَصْمِي حَاكِمِي كَيْفَ أَصْنَعُ؟).

ولكن هَيْهَاتَ.! إنَّها صيحةُ العاجز وأنَّةُ الموجع وصرخةُ المفجوعِ ومِحنةُ الحيرانِ ودهشةُ الْمَبْهُوتِ ورعدةُ الخائفِ ورجفةُ المأخوذِ وذِلَّةُ الأسيرِ واستغاثةُ المقهورِ ثم ميتة الآيسِ البائس على مضاجع الخمولِ:

صيحاتٌ وويلاتٌ تتجاوب أصداؤُها في الفضاء وما هناك من مجيبٍ، اللهم إلاّ صوتاً واحداً حفظهُ صدر الماضي منذ قرون، واليومَ يكررهُ تارةً أخرى فَاسْمَعْهُ بكلِّ أسفٍ يقولُ:

إِبْكِ مِثْلَ النِّسَاءِ مُلْكاً مُضَاعاً لَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَالِ

اللَّهُمَّ إنا نعوذُ بك من ذاك اليوم العصيب يوم تصبحُ أمَّة مُحَمَّدٍ كقومِ موسى قد ضُربت عليهم الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وباؤوا بغضبٍ منكَ، نُهْبَى المطامع وضحايا الأهواءِ، تسترِقُّهم كلُّ يدٍ وتجهزُ عليهم كلُّ مُدْيَةٍ ثم يلوكُهم كل شَدْقٍ[1] وينهشُهم كل نَابٍ.

اللَّهُمَّ إنَّا نعوذُ بك من تكرار المصاب بِأَفْجَعَ منهُ، فنذوقُ في الشرقِ ما ذاقَ الأندلسُ في الغربِ، ثم هناكَ الضربةُ القاضيةُ والموتُ الذي ما بعده نُشُورٌ[2].

اللَّهُمَّ إنا نعوذُ بك أن نكون مِمَّنْ لا تنفعهم العِظَاتُ ولا تردعهم الزواجرُ فنجلسُ تحت قولِ الشاعرِ:

مَنْ لَمْ تُزِدْهُ عِظَةً أَيَّامُهُ كَانَ الْعَمَى أَوْلَى بِهِ مِنَ الْهُدَى

اللَّهُمَّ لا تُشَمِّتْ بنا أعداءَك وأعداءَ دينك ولا تجعلنا من الذين أماتتهم الغفلةُ من حيثُ أحياهمُ الهوى وصَحَوا للخطوب من حيثُ أَسْكَرَهُمُ الغرورُ ثم أيقظتهم النوائب من حيث استنامُوا للحوادث واستسلموا للأيامِ فظلموا أنفسهم وكانَ أمرهم فُرُطا.

تَلْخِيصٌ

إذا كانت الْعُقْبَى من انقراض الدولة العثمانية –لاَ قَدَّرَ اللهُ– مَحْوَ الخلافة الإسلامية؛ وقد عرفتَ أيُّها المسلمُ ما للخلافة من المكانةِ

[1] الشِّدْقُ: جانبُ الفَمِ، والشِّدْقَانِ: طِفْطِفَةُ الْفَمِ مِنْ بَاطِنِ الْخَدَّيْنِ. لسان العرب: (شدق): ج ٧ ص٥٨.

[2] لاحظ أيها النابهُ: أن الْمُحذِّرَ لا يذكرُ الأملَ، لأن التحذيرَ لشدِّ العزمِ على الفعل، وذكر الأملِ يُلَيِّنُ منه؛ والآن وبعد زوالِ دولة الخلافة فالأملُ معقودٌ بالوعد أنه ستكون بعد الملكِ الجبريِّ خلافةٌ على منهاجِ النبوَّة، فَافْزَعْ وَاعْمَلْ.

الكبرى في دِينك والمَنْزِلَةِ العُظمى في شريعتكَ والوجوب الأتَمِّ لصالح دنياك وآخرتك فبماذا يقضِي عليك الواجبُ؟

إذا كانت الْعُقْبَى من زوال الدولة العثمانية –لاَ قَدَّرَ اللهُ– أيها المسلم شَتَاتَ المسلمين وضيعةَ الدينِ والاستكانةَ لأعدائه والتسليمَ لخصمائهِ والقهرَ والأسرَ وافتضاحَ الأمرِ والإرهاق والإستبداد والإفساد والإستعباد بفقد عِزِّ الجامعةِ وانتثار عقد الكلمة وتمزيق أَدِيْمِ الوحدة فماذا ترى مِن واجبكَ هُنالك؟

إذا كانت الْعُقْبَى من زوال الدولة العثمانية –لاَ قَدَّرَ اللهُ– أيها المسلم ذُلاًّ ما بعده عِزٌّ، وموتاً لا تعقبهُ حياةٌ، وفساداً لا يُرى له إصلاحٌ، ورُعباً لا يزيله أمنٌ، وشقاءً لا يشفعه نعيمٌ، ثم يأساً لا يتخلل ظلامَهُ بريقُ أملٍ، فماذا عسى أن يكون عملُك في مثل هذا الموقفِ العصيب؟

أسئلةٌ أطرحُها على بساط البحث ثم أناشدكَ اللهَ.. وشرفَ الإخاء الدينيِّ – أيّها المسلمُ – إلاّ ما فكَّرتَ في مغامزِها فذكرتَ مبدءَك ومنتهَاكَ وتدبرتَ مصيركَ وعقباكَ ثم غَضِبْتَ لدينكَ ودُنياكَ.

ولكأنِّي بكَ إن شاءَ اللهُ وقد سَطَعَ لديك نورُ الفجر واتضحَ لك الأمرُ وأخذتك هزَّةُ العصفور بَلَّلَهُ القطرُ فإذا أنتَ عالِمٌ بالواجبِ وعاملٌ له في آنٍ واحدٍ.

سلامُ اللهِ عليكَ أيّها العالَمُ الإسلاميُّ، سلامُ جزءٍ منكَ مفتونٌ بِكُلِّهِ، وولدٍ من أبنائك بارٍّ إن شاء الله بأبيه، سلامُ مُحِبٍّ لك، مشغوفٍ بك، مفادٍ في سبيلك، يضحِّي تحت أقدامك ما عَسَى أن يبخلَ به الأجوادُ حتى سوادَ العينِ وسويداءَ الفؤادِ، بل يقرِّبُ نفسهُ على هاتيك الأعتاب ثم يستعذبُ هناك كل عذابٍ، تحيةَ نشوانٍ بحمياك، وَلْهَانٍ بطلعة محياك، مخلص لك، مشفق عليك، واقف على قدم المفاداة بين يديك وربما فَوَّقَ سهام العتب إليك:

رُحْمَاكَ أيها العالَم الإسلامي لقد فَضَحَ نورُ الصبح فحمةَ الدُّجى وبَهرت شمسُ اليقين سرجَ الظنون، ثم أنتَ في ليلٍ من الشَّكِّ مظلمٍ، فحتى متى.. وإلى متى؟

رُحْمَاكَ ثم رُحْمَاكَ! لقد طلع الصبح فإلى متى الرقاد؟ ولقد عرفت الداء، فمتى تلتمس الدواء؟

لا شكَّ أن عروقَك ممتلئة غيرةً وحماسة، ولكن أين آثارها؟ لا أشك أن ملءَ إهَابكَ حَمِيَّةً تَتَّقِدُ في كلِّ ذرة من مقوِّمات وجودك، ولكن لماذا لا تشعُّ أنوارها؟ إني واثق أن طِفَاحَ قلبكَ زَفَرَاتٌ متوقدةٌ وأنفاسٌ متصاعدةٌ، ولكن متى يتطايرُ شَرَرُهَا وتستبينَ نارُها؟ هذا تاريخك بين يديك وإنه لتاريخٌ مجيد فاعطف إليه النظر رويداً:

اللهُ أكبرُ! ما هذا الْمَجْدُ الْمُؤَثَّلُ والشرفُ الأعظم والسُّؤْدَدُ الأوحدُ والفخر الْمُجسَّدُ!

اللهُ أكبرُ! ما هذه الإحساساتُ العالية والعواطف الساميةُ والمدارك الراقية والنفوس الطاهرة والوجوهُ الناضرة!

اللهُ أكبرُ! ما هذه الْمَحَامدُ والْمَحاسنُ والمآثر والمفاخر والفضائلُ والفواضل والمكارم والمعالِمُ!

اللهُ أكبرُ! ما هذه الشمائل الكريمة والأخلاق الوسيمة والعظائم من الأمور والغُرَرُ الوضيئة في جبهة العصورِ! ثم ما هذه الآيات البيِّنـــاتُ والمعجزات الباهراتُ!

تلك ديباجةُ تاريخ أسلافِكَ – أيها المسلمُ– إذ تأخذه بيمينك وتقرؤه، ونور الفخر يسطعُ من جبينك... فخذ بشمالكَ تاريخ يومـــك واقرأ سطور التفريط منك والاعتداء عليك والإيقاع بك ونصب الحبائل لك وتفويق السهام إليك، ثم قِسْ حاضراً بغابرٍ واشهد علـــى نفسك أنك ابن الثريا وربيب الثرى فنصفٌ في الأرض ونصفٌ في السماء.

إِنْهَضْ بنفسك فإنك أَجَلُّ من أن تكون في مثل هذا الوَادِ. رفرف في عالم الْمَلَكُوتِ فإنما مقرُّك هناك. أمبصرٌ أنت هذه الكواكـــب في صَحْنِ السماء؟ ما اشبههنَّ بتذكارات الْمَجْدِ من مآثر اسلافك الأكرمين. أمْعِنِ النظرَ في قرص الشمس تجد سطوراً ذهبية خُطَّت علـــى صحيفة من نور، وما هي إلاَّ صفحة من تاريخ أولئك الكرام. ينظرون إليك من علٍ وتنظر إليهم من أسفل، لشتَّان مـــا بـــين هاتيـــك النظرات..!

قد علمنا تَقَلُّبَ وجهكَ في السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلةً ترضاها: اين أنتَ من الهلال؟ أما أنَّ هناك نورُ هداكَ، ثمة طالع سعدِكَ ونجم رشدك ثم تذكرة مجدك ومجدِ آبائك الأكرمين.. أَتَرى أَشِعَّتَهُ الذهبية؟ إنَّها الأسبابُ إلى السماء فدونك السُّلَّمَ الأوحد إذا كنت تريـــدُ الارتقـــاء. استمسك بالعُروة الوثقى فما هناك من انفصامٍ.

إذا جنَّ عليك الليل وَادْلَهَمَّتْ غَيَاهِبُهُ ثم غمرك بحالكةِ الستورِ فهل تجدُ غير البَدْرِ تمزق به أحشاء الظلام؟ استضيء بنور الهلال تجده بدراً كاملاً.

إنَّكَ – أَيُّهَا الْعَالَمُ الإسْلاَمِيُّ– في لَيْلٍ أَلْيَلٍ وظلام حالكٍ من ظُلْمِ أعداءِ دينك. والغايةُ القصوى للهلال أن ينتشلك من مخالـــب الظُّلْـــمِ والظُّلَمِ، فترحَّم على نفسك بقدر ترحُّمه عليك وتحنَّن عليها بقدر حنانه لك.

هذا (الهلالُ) ما تَدَاعَتْ عليه الأمم وتَأَلَّبَتْ عليه الأقوام إلا من أجلك: يريدون أن لا يكون لك وليٌّ ولا نصيرٌ لِتَظَلَّ لقمةً سائغة، يهنئون بعنائك ويسعدون بشقائك.

قَلِّبِ الطَّرْفَ في هذا المجتمع وما انطوت عليه صحيفةُ الوجود من جميع الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ فلا ترى إلا ظالماً ومظلوماً. أما الظالم فأعداء دينك وأما المظلوم فأنت.

هذه الأممُ كلها، هل ترى بينهنَّ مثلك من مظلوم؟

ربعُ البشرِ عداداً ثُمَّ أشقاهُم عيشاً وأنكدُهم طالعاً. ما أَشبهك بالفلاَّح: يظلمهُ الناس ومنه نعيمهم، يحقرونهُ وعلى أكتافهِ تقومُ صـــروحُ الآمال.

غَفَا جَفْنُكَ فطمِعَ فيك الأعداءُ، ثم طالَ سُبَاتُكَ فانقلبَ الطمعُ وقاحةً حتى إذا أفرطتَ في حمل الضَّيْمِ وقَبُولِ الْهَوَانِ أصـــبحَ القـــوم لا يحسبون لك حساباً كأنك في الوجود لا شيء... ولَمَّا لم يؤثر عليك كل هذا أضحوا يرونَكَ شيئاً زائداً في الوجود. وما حقُّ الزائد إلا



الْمَحْوُ والإفناءُ. ألاَ وإن القوم على هذا عاملون، وفي هذا الوادي هائمون. ألاَ وإنَّ في مقدمة القوم الانكليز السَّكسُونِّيين كما سنوافيك من هذا بالنبأ اليقين ولا ينبِّئك مثل خبير[1].

[1] ولَمَّا ضَعُفَ شأنُهم وذهبَ كثيرٌ من كيدِهم بذاتِهم، حوَّلوا خُبْثَهم ومَكْرَهم وخداعَهم إلى ربيبتِهم (أمريكا) لتُكْمِلَ المشوارَ وتؤدِّي الغرضَ، فانتبه أيُّها المسلمُ الغيورُ.

الْخَاتِمَةُ

فِي أَنَّ الانْكِلِيْزَ أَشَدُّ الأُمَمِ عَدَاوَةً لِلإسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِيْنَ

لاِبْنِ آدمَ صفحتان: حيوانيةٌ وإنسانيةٌ، فكلما قويت إحداهُما ضعفت الأخرى. وعلى كل فلا يخرجُ الإنسانُ عن كونه حيواناً. ثم ألواحُ الفطرة أحدُ اثنين: المادةُ والمعنى. وإن شئتَ فَسَمِّ الأولَ جُثمانياً والآخر رُوحياً، ولابن آدم من كليهما نصيبٌ، فاشتغاله بالماديات يقوّي منه جانب الحيوانية. واشتغاله بالروحانيات يقوي جانب الإنسانية. فإذا رقي في الثانية فربما تدرَّج حتى التحققَ بِالْمَلَكُوتِ، وإذا تسفَّلَ في الأولى كان شرَّ صنوف الحيوانِ حتى الوحوش الضارية.

المادةُ للجسم وهو من تراب فلا يصوِّب نظره إلا في أسفل. والروح لمعةٌ من لمعات الحق فلا تصعِّد النظرَ إلا في السماء ومن هنا كان الناس أحد اثنين: طيِّبٌ وخبيثٌ، رفيعٌ ووضيعٌ.

يقالُ: مَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ. فما كانَ أحرى عصرنا أن يعرف بعصرِ المادَّةِ.

شرُّ صنوف الشَّرِّ الأَثَرَةُ، وهي من خصائصِ المادة ومن سنن العصر حتى لو أعطيناه لقباً آخر لقلنا: عصرَ المنفعةِ.

عدَّ ما شئت من فعال الخيرِ ومظاهره وموارد الحمدِ ومصادره وأوامرِ القدس وزواجرِهِ وملامح السماء وأخبارِها وطيب الأحدوثة وفخارها وسلامةِ الصدر وآثارها وطهارةِ النفس وضمائرِها والوجداناتِ وسرائرِها حتى لا تدعَ للفضيلة آبدة إلا ذكرتُها ولا شاردةً إلا أحضرتُها، ثم احشرهُنَّ في صعيدٍ واحد من ربوع لندن أو أحياء (باريز) ثم قلِّب هناك طرفَ الناقد البصير والمدرَّب الخبير تجد من فوق كلهن هيكلاً معلَّقاً في الفضاء شاخصةً إليه الأبصارُ وَالِهَةً فيه العقولُ، مشغوفةً به القلوبُ، وقد أدلى بقدمه من عَلٍ والقومُ يقربون تحتهما كل هاتيكَ الفضائل ضحايا المطامع وقرابين الأهواء.

فَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ ذَاكَ الْهَيْكَلِ قِيْلَ لَكَ: الْمَنْفَعَةُ!

الجودُ فضيلةٌ وعند القوم جنونٌ، فلو زار أخٌ أخاه أَبَى قِرَاهُ؛ لأنهُ يضرُّ بمنفعته مادةً. والعفو عند المقدرة من أجلى مظاهر الإنسانية، أما القوم فيسترقُّون الرقاب ويمتصون الدماء ويوقعون بالأمم وقعة المنتقمِ الجبار والناقم ذي الثأر علىغير ذنبٍ مقترف ولا إثمٍ مكتسب وإنما هي المنفعةُ والقوم عبيدُها.

أشرفُ ما يحمي الرجلُ عِرْضَهُ، وخيرُ ما يفادي في سبيلِهِ دينُه، ولكن كليهما يذالُ هيكل صونه عند القومِ أمام المنفعةِ لأنَّهما معنويَّان وهي ماديةٌ.

العفافُ رداءٌ من نسائم الأسحارِ تنعش به الأرواح من حيثُ لا تراهُ العيون، والدينُ حُلَّةٌ من نور نزلت من السماء تُلْبَسُ ولا تُلْمَسُ، ولكن القومَ يبيعون كليهما بدرهم يحسُّونه بالبصر ودينار يلمسونه بالكفِّ؛ لأنَّهم لا يريدون أن يعرفوا إلا المادة.

في القلبِ رحمةٌ وحنانٌ وبين الجوانح غيرةٌ ومروءةٌ يبعثهنَّ أمر روحاني هناك ربما نسميه باللطيفة الربَّانية، أما القومُ فلا يشعرونَ بكل ذلك إذا اعترضت المنفعةُ؛ لأنَّهم يُنكرونَ الروحَ ولا يريدون أن يعرفوا إلاَّ المادَّةَ.

شَتَّانَ ما بيننا معاشر المسلمين وبين أولئك المارقين: تَهُمُّنا الروحُ قبل الجسم ويهمهم الجسم قبل الروح، فهم أعداؤنا طبعاً وأعداء الإنسانية. إن الإنسانَ والحيوان مشتركان في الجثمانية وإنَّما يمتازُ الأول عن الثاني بالروح الإنساني.

لاَ تُهْمِلِ النَّفْسَ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا   فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لاَ بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

ويرحمُ اللهُ الفَارَابي حيثُ يقولُ:

كَمِّلْ حَقِيْقَتَكَ الَّتِي لَمْ تَكْمَلِ   وَالْجِسْمُ دَعْهُ فِي الْحَضِيْضِ الأَسْفَلِ
أَتُكْمِلُ الْبَاقِي وَتَتْرُكُ فَانِياً   هُمْلاً وَأَنْتَ بِأَمْرِهِ لَمْ تَحْفَلِ
أُعْطِيْتَ جِسْمَكَ خَادِماً فَخَدَمْتَهُ   أَتُمَلِّكُ الْمَفْضُولَ رِقَّ الأَفْضَلِ
شَرْكٌ كَثِيْفٌ أَنْتَ فِي حَبَلاَتِهِ   إِنْ كَانَ يُمْكِنُكَ الْخَلاَصُ فَعَجِّلِ

ولراقمِ الحروفِ من قصيدةٍ في ابنِ آدمَ:

نُورٌ عَلَيْهِ ظُلْمَةٌ تَغْشَاهُ   كُلُّ الْعُقُولِ تَوَلَّهَتْ بِسَنَاهُ
ضِدَّانِ قَدْ جُمِعَا بِفَرْدٍ وَهُوَ فِي   سِرِّ اجْتِمَاعِهِمَا يُحَارُ نُهَاهُ
جِسْمٌ وَرُوحٌ لاصْطِحَابِهِمَا مَدَى   شَقِيَ ابْنُ آدَمَ مِنْهُمَا بِقَضَاهُ
هَذَا يَجُرُّ إِلَى الثُّرَيَّا بُرْدَهُ   وَإِلَى الثَّرَى هَذَا يَجُرُّ كِسَاهُ
يَتَنَازَعَانِ عَلَيْهِ ثَوْبَي شِقْوَةٍ   وَسَعَادَةٍ أَذِنَا بِطُولِ عَنَاهُ
لاَ تَخْدِمَنَّ الْجِسْمَ فِي شَهَوَاتِهِ   فَالرُّوحُ تَشْقَى بِاتِّبَاعِ هَوَاهُ

أما القومُ فخُدَّامُ الجسم الحيواني، أُسَرَاءُ المادةِ وعبيدُ المنفعة، ومن ذلك كانوا علينا أشدَّ ضرراً من الحيواناتِ الكاسرةِ والوحوشِ الضاريةِ ومن هناك كانوا أعداءَنا وأعداءَ الانسانيةِ في آنٍ واحد... ثم أشدُّهم عداوةً لنا معاشر المسلمين ولديننا المبين هُمُ الانْكِلِيْزُ.

إنَّ هؤلاءِ الطُّغَام لا يوجهون سِهَامَ غدرهم إلا نحوَ القلبِ يريدونَ الضربةَ القاضيةَ.

غَرَّهُمْ في العالَم الإسلاميِّ فرطُ غفلتهِ وطولَ سُبَاتِهِ ووثقوا من أنفسهم بما فَرَطُوا عليه من المكرِ والغَدْرِ والْخِدَاعِ وَالْمُخَاتَلَةِ فجاءوا هذا المسكين بأنياب الذئبِ وجِلْدِ الْحَمَلِ حتى إذا تَمَّ دستهم وأماتوا العواطفَ وخدَّروا أعصاباً كشَّروا عن نَابٍ أمضى من الْحُسَامِ وأنشبوا مخالب أشدَّ وخزاً من الحِرابِ، قعدُوا من المسلمين مقعد ذوات الأنياب من الفريسة وأخذوا ينهشون نَهْشاً ويقضمون قَضْماً، يزدردونَها لُقماً سائغة وغنائمَ باردةً حتى أكلوا من ذلك الجسدِ العظيم ما يربوا على ثُلثِهِ.

مَزَّقوا أديمَهُ، فصَدُوا عروقَهُ، امتصُّوا دماءَهُ، حزُّوا مفاصله، قطعوا أوصاله، حتى إذا لم يبق إلا القلب – وفيه مادةُ الحياة – استعظموا

الأمر ثم استكلبوا واعتقدوا أنهم لم يصنعوا شيئاً ما دام القلب سالماً... هناك جعلوا أقصى آمالهم وجلَّ أمانيهم محو الخلافة الإسلامية لأنَّها قلبُ العالَم الإسلامي. وأخذوا يسعون السَّعْيَ الحثيثَ من وراء تلك الغاية المشؤومة يُضْمِرُونَ الغدرَ وينصبون حبائلَ المكر ويتفنَّنون في أساليب الخداع بمراوغةِ الثعلب ومُخَاتَلَةِ السَّلُوقِيِّ وحقيقة الأُفعوان: لِينُ مَسٍّ وَسُمُّ نَابٍ.

كلُّ ذلك سهام يُفَوِّقُونَهَا نحو القلبِ؛ قلبِ العالَمِ الإسلاميِّ يريدون الضربة القاضية.

إن هذا من الأمور الطبيعية للانكليز لأن منفعتهم بل حياتَهم هناك:

ما كان عرشُ بريطانيا لِتُكَلِّلَهُ الحشمةُ وتظللَهُ العظمةُ لولا أن دعائمه هم المسلمون، **فمِنْ صَالِحِ بَرِيْطَانِيَا أَنْ لاَ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الْبَسِيْطَةِ دَوْلَةٌ إِسْلاَمِيَّةٌ ذَاتُ حَوْلٍ وَطَوْلٍ تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَكُونَ سَنَداً لِلَّذِيْنَ يَحْمِلُونَ عَرْشَهَا وَيَتَخَبَّطُونَ فِي أَغْلاَلِ أَسْرِهَا مِنْ أُوْلَئِكَ الْبَائِسِيْنَ**[1]. ولا ريبَ أن مناط تعزيز الدولة وكونها قويةَ الشكيمة، ذاتَ حَولٍ وطَوْلٍ إنما هو اتحاد الكلمة وجمع الشَّتات، والخلافة هي كعبةُ السياسة للمسلمين، تَتَوَجَّهُ شَطْرَهَا وجوهُهم أينما كانوا وتَهوي إليها أفئدتُهم من كلِّ مكان. وهي الرابطةُ الكبرى للشعوب الإسلامية والوسيلة العظمى للمِّ الشعث وجمع الشمل، فهي أجدرُ أن تكون تلك الدولة التي تستطيع أن تكون سَنداً للبؤساء الذين يَئِنُّونَ تحت أثقالِ الحكم البريطاني من إخواننا المسلمين.

مِنْ أَجْلِ ذلك كَانَ الانْكِلِيْزُ أكثرَ الأممِ ضَرَراً للمسلمين وأشدَّ الأقوامِ عداوةً لهم ولخلافتهم المقدسة ولدينهم المبين ثم لِهلالهم الممثِّل لعظمةِ هاتيك المقدسات.

ومن أرادَ أن يعرفَ الجرائم المركَّبة والآثام المتداخلة والجنايات المتسلسَلة الْمُرَتَّبُ بعضُها على بعض ترتيباً لا يستطيعه إلا من تسفَّل من بني الإنسان في الحيوانية إلى أقصى درجاتها؛ فليعمِّقِ النظرَ في أعمال بريطانيا إزاءَ العالَم الإسلامي وفيمن أوقعَهُ نَكَدُ الطالع في أشراك خداعها وأغلال أسرها من إخواننا المسلمين. وإليك بعض البيان عن الأمهات من تلك الجرائم والجنايات:

الْجِنَايَةُ الأُوْلَى: سوءُ نِيَّتِهَا وخُبث طَوِيَّتها إزاءَ العالَم الإسلامي انتهازاً للفرصة من غفلته. ولا يشتبه ذُو لُبٍّ إن سوءَ القصد من الجنايات الأدبيَّة ومن طبائع الحيوانات الوحشيَّة.

الْجِنَايَةُ الثَّانِيَةُ: تَظَاهُرُهَا بالخير للمسلمين بينما تُضْمِرُ لهم شَرّاً وهكذا دأبُها معهم: تُظْهِرُ غيرَ ما تُضْمِرُ، وتُضْمِرُ غيرَ ما تُظْهِرُ: غِشٌّ مَحْضٌ وَنِفَاقٌ بَحْتٌ مما يجدرُ أن يُسمَّى رأس الجنايات. ولهذا اختارَ الشاعرُ الحكيم الْمُجاهرةَ بالعداوة على الإخاءِ الكاذب حيثُ قالَ:

فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِصِدْقٍ ... فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِيْنِي
وَإِلاَّ فَاطَّرِحْنِي وَاتَّخِذْنِي ... عَدُوّاً أَتَّقِيْكَ وَتَتَّقِيْنِي

الْجِنَايَةُ الثَّالِثَةُ: قلبُها للحقائق عندما تتمكنُ من العبثِ بعقول البسطاء: فتراها تقاتِلُ الحقيقةَ باسم الحقيقةِ وتُجْهِزُ على العدلِ باسم العدل، لا يَزِعُها وازعٌ ديني ولا يردعُها رادعٌ وجداني كما هو دَأْبُهَا مع المسلمين من قديم وحديث.

---

[1] يريد حين كانت بريطانيا تستعمرُ ثُلُثَ العالَم الإسلاميِّ، فكيف اليوم؟

الْجِنَايَةُ الرَّابِعَةُ: إنَّها هي التي بَدَّدَتْ شَملَ المسلمين فجعلتهم أشتاتاً: كانت لهم حكوماتٌ صغيرة وأمارات يسيرةٌ فأَلْقَتْ جراثيمَ الشِّقاق بين أقوام وخدَّرت أعصابَ آخرين وسَحَرَتْ كلَّ قَبِيْلٍ بما قصرت مداركهُ عن سوءِ عُقْبَاهُ حتى كانت النتيجةُ أن تناكروا وتنافَرُوا وربما تناحروا وتشاجَرُوا ثم تفرَّقوا أَيْدِي سَبَأ فهَانَ عليها أن تَزْدَرِدَ قوماً بعدَ آخرينَ.

الْجِنَايَةُ الْخَامِسَةُ: إنَّها ريثما تستحكمُ حَلَقَاتُ أَسْرِهَا في طائفة من المسلمين وتأمنُ مغبَّةَ ظُلْمِهَا وسوءَ عاقبةِ غَدْرِها لا تلبثُ أن تَقْلِبَ لَهُمْ ظَهْرَ الْمِجَنِّ فتخونُ العهودَ وتمزِّقُ الوعودَ ولا تخشى اللهَ ولا سواهُ ثم لا ترعى إلاًّ ولا ذمة كما كانت سلسلة أعمالها مع مساكينِ الهند وبؤساء مصر وغيرهما من الأقطار الإسلامية.

الْجِنَايَةُ السَّادِسَةُ: سَلْبُهَا الحقوقَ السياسيةَ ممن في قبضةِ أسرها من المسلمين: إن في ربوع الهند تسعين مليون مسلم تحكمُهم بقوانين يجهلون واضعِيها فضلاً عن أن يكون لهم فيها رأيٌ حينما تبادل الأفكار في وضعها الواضعون. وأيُّ ظُلمٍ فوقَ أن تُسطَّرَ أقدارُ أممٍ بأيدي آخرين.

الْجِنَايَةُ السَّابِعَةُ: سلبُها حقوقهم الاقتصادية: فإذا ما عرَّجت على مصر وتغلغلتْ في أحشاءِ الهند رأيتَ المسلمَ آلةً مسخَّرةً في عالَم الاقتصاد كالجملِ يحملُ قربةَ الماءِ يرزحُ تحتها وليس لهُ منها نصيبٌ إلا جُرعةً يُسقاها لتكونَ له عَوناً على حمل الأثقال... ثم لا تكادُ تشمُّ للنقودِ رائحةَ الوجودِ، وإنما هناك أوراقٌ بأيدي القوم متى غَضِبَتْ بريطانيا وأرادت بهِمْ نَكالاً استأثرت بما في المصارفِ (البنوك) من الذهب والفضة وتركَتْ لهم تلك الأوراقِ أشبهَ بالتميمة في يدِ الصبيِّ لا تدفعُ عنه موتاً ولا تَرُدُّ أذًى.

الْجِنَايَةُ الثَّامِنَةُ: سلبُها حقوقهم الاجتماعية: فإنك لا تكادُ تجدُ هناك منتدياتٍ ومجتمعاتٍ يتعارفُ فيها القوم فيفضي بعضهم إلى بعض بما عسى أن يُخَالِجَ ضميرهُ مما يعجز عنه الفرد ولو تولاَّهُ جَمْعٌ لعادَ على كل فردٍ منهم بفائدةٍ ما؛ أدبيةً أو اجتماعيةً أو اقتصاديةً أو عمرانيةً مثلاً. ولكن بريطانيا قد تركت الْمَجالَ لمثل هذا أضيق من مَفْحَصِ قَطَاةٍ خشيةَ أن تحتكَّ الأفكارُ ببعضها فتلمعَ من خلال سحابها بارقةُ الحقيقة فيبصرُها القوم وتنتبهَ المداركُ ثم تثورُ المشاعرُ وهناك ينكشفُ الستار ويفتضح أمرُ بريطانيا وسرُّ سياستها الخلاَّبة فربما تقعُ في مشاكل لا تنحلُّ إلا بخسرانٍ عظيمٍ.

الْجِنَايَةُ التَّاسِعَةُ: سلبُها حقوقَهم الأدبيةَ: فإنك ترى الجهلَ ضارباً أطنابَهُ حيثما خَفَقَ العلَمُ البريطاني من الأقطار الإسلامية، والعلمُ رأسُ الحقوق الإنسانية إذ به يمتازُ الإنسان عمَّن يشاركه في الجنسِ من الحيوان، ولكنَّ بريطانيا تتقاضَى من أولئك البائسين عطيَّةَ (المعارف) ثم تنفقُها في سبيل تعليم أبنائها مما يمهِّد لهم طُرق الاستبداد في أولئك المساكين والتسيطر عليهم والاستعباد لهم والضرب على أيديهم، كمن يأخذُ من رجلٍ سلاحاً بأمان ثم يستعملهُ في سبيل إتلافه والقضاء على حياتِهِ. وهذه أقصَى درجات الغدرِ وغايةَ الخسَّة والنذالة.

أرُوني أيها القومُ مدراسَ لكم عاليةً وكتاتيب راقيةً وكليات ضخمةً شادَتْها لكم دولةُ بريطانيا تثقيفاً لعقولكم وتنويراً لأذهانكم وتأديباً لنفوسكم وتَهذيباً لحواشيكم على حين أن ذلك حقٌّ أدبي أصبحَ في هذا العصر من الحقوق الطبيعية للإنسان. ما أرى عليكم شيئاً من آثار ذلك، ولو كان لما أقمتم على الضَّيم وأغضيتم على القذَى واستكنتم للحوادث وسكتُّم عن البقية من حقوقكم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ لأنَّ التمتعَ بالحقوق الأدبية للإنسان قُطْبُ رَحَى التوصلِ إلى بقية حقوقه في مضمار الحياة. وهذا الأمرُ نفسه كان الباعثَ لدولة بريطانيا على حرمان القومِ من حقوقهم الأدبية لِيَسْهُلَ عليها هَضْمُ البقية الباقية، وهكذا كانت الآثامُ متداخلةً

والجرائمُ مركبةً.

الْجِنَايَةُ الْعَاشِرَةُ: إنَّها بدلاً من التَّوَدُّدِ إلى العالَم الإسلامي رعايةً لعواطف من عندها من إخوانهم المسلمين تراها العدوَّ الأزرقَ والبلاءَ الأسودَ لكلِّ مَنْ آمَنَ بمُحَمَّدٍ ﷺ وعَظَّمَ القرآنَ تَبْكِيْتاً لأولئك المخدوعين وتنكيلاً وتقليماً لأظفارهم وتخضيداً لشوكتهم ثم تحكيماً لحلقاتِ الأسْرِ وشدِّ الوثاق. ومن هنا كان كلُّ فتنةٍ حدثت في قطر إسلامي أو كارثةٍ نزلَتْ فيه أو حادثةٍ هَزَّتْ جوانبه فإنما موقدُ نارِها ومثيرُ غبارِها هم أولئك الإنكليز أبناءُ السكسون الذين لا يريدون أن يَصْفُو للمسلمين عيشٌ ولا يَهْدَأَ لهم بَالٌ. وإذا أردتَ تحقيق ذلك فَخُذْ بيمينكَ خريطةَ الكرةِ وتاريخَ السياسة بشمالِكَ ثم أرسل النظرَ إلى إقليم الهندِ العظيمِ وبلادِ فارسَ ذات الْمَجدِ القديم وإلى مَسْقَطَ وعُمان وقبائل نَجْدٍ والعراق وإلى اليمن وأطرافها والسودان وأكنافها ومصر وأعرافها حتى إذا تحقَّقتَ ما انتابَ هذه الأقطار الإسلامية من فاجع الأقدار على يدِ الدولة البريطانيَّة علمتَ حقَّ اليقينِ أنَّها – لاَ بَارَكَ اللهُ فِيْهَا – رأسُ كُلِّ بلاءٍ للإسلامِ والمسلمينَ.

الْجِنَايَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: مناوأتُها العداءَ للخلافةِ المقدسة الإسلامية عداوة للعالم الإسلامي كما مرَّ بيانه. وتفصيل ذلك: أنَّها تعلم أن ميزانَ الموت والحياة للمسلمين خلافتهم العظمى فإذا ماتت ماتوا من حيث لا يرجى لهم بعثٌ، وما دامت حَيَّةً فلا يخشى عليهم من الموت السَّرمد الذي ما زالت تتمناهُ لهم بريطانيا وتسعى من ورائه السعيَ الحثيث، فبعثتها هذه الفكرة إلى أن لا يكون لديها عملٌ أهم من السعي لِمَحْقِ الخلافة الإسلامية قطعاً للرأس وبَتْراً للذنب ثم إماتةً للعالَم الإسلامي ميتةً لا تقبلُ الريبَ كما تشتهي هي وتريدُ تكميلاً للجنايات وتشديداً للويلات ثم إتماماً لما لها هناك من الغايات.

الْجِنَايَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فَرْطُ عدائِها للدين الْمُحَمَّدِيِّ والشريعةِ الغَرَّاءِ، وفرطُ بُغْضِهَا لأبناء هذا الدين وقرآنهمُ الْمَجيدُ. وذلك حيثُ انتهت بها سلسلةُ الجنايات إلى هذه الجناية الكبرى، وتفصيلهُ: أنَّها بعد التدقيق والتعميق عرفت أنَّ الخلافةَ الإسلاميةَ حيَّةٌ رَغْمَ أَنْفِهَا ما دامَ الدينُ الإسلامي حَيّاً؛ لأنَّها فيه دعامةٌ كبرى ورُكن عظيم فلا يمكنُ القضاء على المسلمين إلاّ بمَحْوِ خلافتهم ثم يستحيلُ هذا – أعني مَحْوَ خلافتهم – ما دام دينُهم ثابتاً، فمن هنا كان أبغضُ الأشياءِ إلى الإنكليز وأثقلُها عليهم الدِّيْنَ الإسلاميَّ الحنيفَ، يرونَ حياتَهم بموتِهِ، وتَمام نفعِهم بالقضاءِ عليه. وهذا ما دَعَا بعضاً من أعاظم سَاسَتِهِمْ أن يُصَرِّحَ بسوء النية أزاءَ الروضة المطهَّرة النبويَّةِ، وبعضاً أن يَصْرُخَ في مجلس الأمة البريطانية بأنَّ العالَمَ لا يستريحُ ما دامَ القرآنُ موجوداً، علماً منهم بأن أُسَّ الأساسِ لهذا الدين هو القرآن وسُنَّةُ مَنْ أُنْزِلَ عليه القرآن. ولكن غلادستون اللَّعِينُ قد أطلق عاماً وأراد خاصاً وهو صادق فيما أراد باطناً: أجل، إن العالَمَ البريطانيَّ لا يمكنُ أن يستريحَ ما دام القُرْآنُ موجوداً؛ لأن الخائِنَ خائفٌ ولا يُرجى مع الخوف راحة، وأنه ليعلم خيانة قومه ودولته لأهل القرآن، ثم يعلمُ أن هناك سلسلة تنتهي إلى هذا الكتاب الْمَجيدِ وهي أنه: ما دامَ هذا الكتابُ حَيّاً فالدينُ الإسلامي حيٌّ، وما دام الدينُ الإسلامي حَيّاً فالخلافةُ الإسلامية حيَّةٌ، وما دامت الخلافةُ الإسلامية حيَّةً فالمسلمون لا يموتون، وما بقي للمسلمين حياةٌ فلا بُدَّ أن يستيقظوا من رقدتِهم يوماً فينتهزوا الفرصة ويستعيدوا من أبناء السكسون ما غَصَبَتْهُ يدُ المكرِ والغدر والْمُخَاتَلَةِ والمخادعة. سلسلةٌ حيويةٌ للعالَم الإسلامي هي التي بعثت الدولة البريطانية والقوم السكسوني على التسلسلِ في الجنايات وركوب الجرائم المركبة والآثام المتداخلة فكانوا شَرَّ الأمم للمسلمين وأشدَّ الأقوام عداءً لَهم وضرراً.

الْجِنَايَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: دسُّها على الدين الإسلاميِّ من طرق متعددة وألاعيب شَتَّى؛ لإفسادِ عقائد بعض والعبثِ بأفكار آخرين سَعياً من وراء ضالَّتها المنشودة: فتراها تعزِّزُ (المبشِّرين) بينما تزعمُ لنفسها التفرُّدَ في حرية المذاهب والأديان فتبثُّهم كالجراثيمِ السَّامة في البلاد

الإسلامية ليدنِّسوا هواءً نقياً ونسيماً صافياً. ودسائسُها للمقصد نفسهِ تحت ستارِ التعليم أشدُّ وطأةً وأكثرُ وبالاً إذ تحجرُ على أدمغة الفتيان والفتيات من المسلمين فتخطُّ على صفحاتِها الخالية ما شاءت وما شاء هواها فلا يخرجُ من مدارسها الصبيُّ أو الصبيَّة من أبناء القُرآنِ إلاّ وقد فسدَ منهما ما يعجزُ عن إصلاحه من ينتبهُ لهما في الزمن الأخيرِ علىأن أولياءهما عن ذلك غافلون. وقد استطلعتُ هذا الخَبْءَ بنفسي في غير قليلٍ من مدارسها المتخصِّصة للذكور والإناث فعرفتُ السِّرَّ في ضَعْفِ إيمان الذين ترعرعوا في حجرِ مدارس الإنكليز أو أُشربتْ روحُهم حبَّ أولئك الطغام على العمياء يقودُهم التقليد ويسوقهم نَكَدُ الطالع. وثبت عندي عَيَاناً ما كنتُ أعتقدهُ فكراً من أنَّ كلَّ مدرسةٍ أجنبيَّةٍ في بلاد المسلمين لم تُشيِّدْ مبانيها الضخمةِ لسواد عيونهم بل لتسويدِ صحائفهم الدِّينية والمليَّة والوطنية بإفساد ما تحمل جوانحُهم من الإحساسات الشريفة إزاء هذه المقدَّسات. ولو ذكرت ما اتفق لِي من تَتَبُّعِي دسائس الأجانب إزاء مقدَّساتنا وجناياتِهم على ابنائنا في مدارسهم المشؤومة لخرجتُ عن الصدد في هذه العجالة ولمسَّت الحاجةُ إلى تأليفِ كتاب أكبرَ منها، ولكن أكتفي الآن بهذا القدر من البيانِ وفيه بلاغٌ لقوم يتدبَّرون.

الْجِنَايَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: فرطُ عدائِها السياسيِّ للهلال العثماني: فإن قولَهم (مَا أُخِذَ مِنَ الصَّلِيْبِ يَعُودُ إِلَى الصَّلِيْبِ وَمَا أُخِذَ مِنَ الْهِلَالِ لاَ يَعُودُ إِلَى الْهِلَالِ) كلمةً أولَ ما رَنَّ صداها في غرف السياسة البريطانية ثم نقلته الريح وطيَّره البرق في سائر الأندية والْمَحافلِ السياسية. وما بقي على وجهِ البسيطة مسلمٌ واحد يوحِّدُ الله فلن ينسى المسلمون ما أظهرَهُ (إدوارد غراي) من الدَّناءة والوقاحةِ إزاء الدولةِ العثمانية في حربها مع دول البلقان مما كانت روحُه وخلاصتهُ تطبيقَ تلك القاعدة التي وضعَها أسلافهُ اللِّئامُ. وذلك: إذ أُعطي القرارَ في مبدأ الحرب بأنَّها لا تغيرُ شيئاً من الخريطة الجغرافية حيث كان الظنُّ أن الْغَلَبَ سيكونُ في جانب العثمانية، فلما تحوَّل طالعُ الحربِ وبدَا ما لم يكن في الحسبان ضُرب بذاك القرارِ عرضَ الحائط وجعلَ الحكمَ لأفواهِ المدافع ورؤوس الحراب تنكيلاً للعثمانية وسَلباً لأملاكها الموروثة منذ عصورٍ. وما كان هذا التدبيرُ والتغيير إلاّ في غُرفِ السياسة والبلاطِ الملوكي من حضيرةِ (لندن) وما كان الباعثُ إليه إلاَّ فرطَ العداء للمسلمين وخلافتهم المقدَّسة؛ لأن الدولةَ العثمانية هي الدولةُ الإسلامية الوحيدة التي لها حقُّ المطالبة بحقوق المسلمين والْمُحافظةِ على بيضة الإسلام؛ ولأنَّ الهلالَ هو الممثلُ لعَظَمةِ الخلافة الإسلامية ومَجْدِ أبناءِ هذا الدِّين الحنيفِ.

تلك الأمهاتُ من الجناياتِ الإنكليزية علىالإسلامِ والمسلمين. ولو بسَطنا البحثَ عن تفاصيل ما تولَّده تلكَ الأمهاتُ كل يوم من فروعِ العدوان وجزئياته لاحتجنا إلى مجلَّدات ضِخَامٍ، ثم ربَّما نفذت الْمَحَابِرُ وعجزت الأقلامُ، فإن إحصاءَ الحوادثِ اليومية من مظاهرِ الحياة وهي شتَّى، وفي أقطارٍ فسيحة وهي ذاتُ شأن ليس مما ينبسط له بساطُ الإمكان.

ثَلاَثُ وَجَائِبَ

يُقال: الجهلُ لا يكون عذراً. وبهذا جاءت الشريعةُ الإسلامية؛ لأن الإنسانَ من لوازمه قابليةُ العلم، فإذا كانَ الجاهلُ غيرَ معذورٍ وهو جاهل فأولَى ثم أولَى أن لا تُقْبَلَ له معذرةٌ بعدما يتضح له الأمرُ ويكون به عالِماً. وقد كشفنا لك النِّقَابَ عن وجهِ الحقيقة أيها المسلم ورفعنا الستارَ عن أعمالِ الإنكليز وآمالهم ومكائدهم ومخادعاتِهم وخُبث نيَّاتِهم وسوء طويَّاتِهم إزاء العالَم الإسلامي بما نَخَالُ الزيادةَ عليه إطناباً مُمِلاًّ، فعرفتَ أنَّهم عدوَّكَ الذي يتربصُ بك الدوائرَ، وظالِمُك الذي لا يرحمُكَ، ثم عدو دينك الحنيف وشرفك الْمِلِّيِّ وخلافتك المقدسة وهلاَلَكَ الْمَحبوبِ، وأنَّهم رأسُ البلاءِ عليك والنوازلُ فيك والويلات لك، فماذا يجبُ عليك إذن أيها المسلمُ؟

إن هناكَ ثلاثُ وجائبَ: الحذرُ؛ ثم الانتقامُ؛ ثم التاريخُ محكمةٌ كبرى.

هذه وجائبُكَ التي إن قعدتَ عن القيام بها فليسَ لكَ من معذرةٍ أمامَ الإنسانية وأبنائها من الأمم والأجيالِ في معتركِ الحياة الدنيا، ثم أمامَ الله وأمامَ رسولهِ يوم البعثِ والنشورِ يوم تأتي كلُّ أمةٍ بكتابِها لا ظلم اليوم إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ.

الْحَذَرُ

أمَّا الحذرُ فلأنَّ اللهَ تعالى أمَرنا به معاشرَ المسلمين في نصِّ كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾[1] فوجبَ علينا شرعاً، ولأنَّ شأنَ العدوِّ أن ينتهزَ الفُرَصَ لِلْفَتْكِ بعدوِّه وإثارة الشرور له وإيقادَ الشَّرِّ، والحذرُ مبدأُ النجاح في ردِّ الكيد ودفع الأذى والذود عن الحوض والذب عن الحقيقة، ولهذا يقالُ: مَنْ نَامَ عَنْ عَدُوِّهِ أَيْقَظَتْهُ النَّوَائِبُ، فوجبَ عقلاً. وما تحقَّقَ وجوبهُ من طريقي العقل والنقل فلا عذر لمن يَتَقَاعَسُ عن القيام به، لا سيما إذا كان العدوُّ ممن عُرِفَ بالمكرِ والخداع والدسِّ والمخاتَلَةَ كأمَّةِ الانكليزِ وساسةِ بريطانيا الجائرينَ.

الانْتِقَامُ

وأمَّا الانتقامُ: فلأنَّ اللهَ يقول في نصِّ كتابه خطاباً للمؤمنين: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾[2] وأيُّ عدوانٍ أكبرُ من جنايات الإنكليز على العالَم الإسلاميِّ كما مَرَّ بيانهُ؟ على أنِّي بلسانِ الدِّيْنِ لا أستطيعُ أن أدعُوا إخواني المسلمين إلى نيَّةِ الشرِّ وإيقادِ نيرانِ العدوانِ إلا بالدرجةِ الثانيةِ؛ لأنَّ هذا الدينَ الحنيفَ يَنْزَعُ إلى التسامح في الدرجة الأُولى والعفوُ فيه أقربُ للتقوى، ولكن متى..؟ ذلك حيثُ لا يُهْضَمُ حقٌّ ولا تُمَسُّ كرامةٌ، أما وقد هُضِمَتْ حقوقٌ ومُسَّتْ كراماتٌ فأقَلُّ ما يجب على المسلمين أن يحفظُوا حقوقهم المغصوبة ويصونُوا كرامَتَهُم الممسوسةَ من عَبَثِ العابثين وتخرُّصِ المبطلين ولو أراقُوا في سبيل ذلك آخرَ قطرةٍ من دمائِهم المضطربةِ في عروق حَمِيَّتِهِمْ الدينيةِ تلك الحميَّةُ التي خضعَ أمامَ عظمتها التأريخُ وسطَّرها في دِيْبَاجَتِهِ بحروفٍ من نُورٍ.

تَذْكِرَةٌ

مرَّ بكَ في آخرِ الفصلِ الأوَّلِ أنَّ مَن يلي أمرَ المسلمين لا يجوزُ شرعاً أن يكونَ غيرَ مسلمٍ، وأن غيرَ المسلمِ لا تجبُ طاعتهُ على المسلمين إذا وَلِيَ من أمرهم شيئاً. وأثبتنا لكَ ذلكَ استدلالاً بكتاب الله وبحديث رسول الله ﷺ. ثم قُلنا لك: فَاعْلَمْ هذا وعَضَّ عليهِ بالنَّوَاجذِ أيها المسلمُ حتى يمرَّ بكَ ما لأجلهِ يُساقُ الحديثُ. فالآنَ نذكِّرُكَ بذاك الحكمِ الشرعيِّ ونقولُ لك باسمِ الشريعةِ الأحمديَّةِ الغرَّاءِ:

---

[1] النساء/ ٧١.

[2] البقرة/ ١٩٤.

إنَّهُ لا ولاَيَةَ لِبَريطَانيَا ثم لا طاعةَ لَهَا عليكَ، وإذا اعتقدت بأنَّ لَهَا عليكَ شيئاً من ذلكَ فقد خَالَفْتَ أمْرَ اللهِ في كتابهِ العزيز وأمرَ نبيِّهِ في حديثِهِ الشريف. ولا يعدُّ اعتقادُكَ هذا أو عملُكَ بمقتضاهُ من التسامحِ الذي أشرنا إليه آنفاً. فإنه «**لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُــوقٍ فِــي مَعْصِــيَةِ الْخَالِقِ**»[١]. إن غايةَ ما هنالك أن دين الإسلام يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ ثم يحقنُ الدماءَ بقدر الإمكان، وليس من العدلِ أن يهضمَ لــك كلَّ حقٍّ ويَعْجُمَ لَكَ كُلَّ عُودٍ[٢] حتى تُسَامُ خَسْفاً وترهق في دينك إرهاقاً ثم تقيمُ على الضَّيْمِ وتصبرُ على الْهَوَانِ تتقلبُ من مضــاجع الذُّلِّ على مثل القَتَادِ[٣]، كأنْ لم يبلغك حديث نبيُّكَ الأعظمُ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لاَ يُذَلُّ**» «**لاَ يَحِلُّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**»[٤] كُــنْ مــن حزبِ الله تكن من الغالبين. إِثْأَرْ لنفسك يَثْأَرُ اللهُ لكَ. اعتزَّ باللهِ فإنَّ العزَّةَ للهِ جَمِيعاً. مِمَّ تخشى؟ فاللهُ أحقُّ أن تخشاهُ. أَمِنَ الموتِ؟ ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ**﴾[٥]. أآنسٌ أنتَ بحياتك هذه؟ تَعِسَتْ حياةُ الْهَوَانِ! بِئْسَتِ الحياةُ لا هي شرفٌ في الحياة الدنيا ولا نورٌ أمامَ اللهِ يوم النُّشُورِ.

خُذْ ثَأْرَكَ مِنْ عَدُوِّكَ تحيا سعيداً وتموتُ سعيداً. اعْتَدِ علىعدوِّك بمثل ما اعتدى عليك تأخُذْ ثأراً وتغسلُ عاراً. إنَّ أخذَ الثأرِ من نواميسِ المنتقمِ الجبَّارِ[٦].

كذلك أخذُ الثأرِ من آثار الغَيْرَةِ، وهي خَيْرُ ما يَتَحَلَّى به الرجلُ في مزاولة الحياةِ فإن مَن لا غَيْرَةَ لهُ لا تكادُ ترجو عندهُ خيراً. ولهذا نَوَّهَ بشأنهِ أربابُ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ و لم يُنْكِرْهُ ذَوُو العقولِ الراجحة، وما أحسنَ ما يُرْوَى في هذا البابِ للمرحوم مدحت باشــا الشــهير[٧] إذ يقولُ:

فَلاَ وَالْقَنَــا وَالْمُرْهَفَــاتِ الْبَــوَاتِرِ   فَلاَ تَرَّةً أَبْقَيْــتُ لِــي عِنْــدَ وَاتِــرِ
أَيَذْهَبُ خَصْمِي فِي دَمٍ لِي مُضَــيَّعاً   وَلَسْتُ أُذِيْقُ الْخَصْمَ حَــدَّ الْبَــوَاتِرِ؟

وليس للمسلمين عند الانكليز ترةٌ واحدةٌ، بل تَرَّاتٌ متتابعات بعضهنَّ يلعنُ بعضاً، فمتى ثم متى يَهُبُّ المسلمُ من غفوته وينــهضُ مــن كبوته فيأخذُ ثأراً ويغسلُ عاراً ويعتدي على ظَالِمِيْهِ بمثل ما اعتَدَوا عليه؟ ولا عدوانَ إلا على الظالمينَ.

هذا، ولا يظنُّ إخواني المسلمون أنِّي أُكَلِّفُهُمْ شَطَطاً أو أتمنَّى لهم المستحيل، فإنما الأيامُ دُوَلٌ، والحرُّ لا يعجزهُ أمرٌ، ومن صدقت عزائمهُ

---

[١] رواه الإمام أحمد في المسند: ج ١ ص١٣١ عن علي بن أبي طالب؛ وفي ص٤٠٩ عن ابن مسعود.

[٢] عَجَمَ الشَّيْءَ يَعْجُمُهُ؛ أَيْ يَلُوكُهُ وَيَعَضُّهُ؛ وَيَعْجُمُ عِيْدَانَهَا أَوْ كُلَّ عُودٍ، يُرِيْدُ أَنَّهُ رَازَهُ بِأَضْرَاسِهِ لِيَخْبُرَ صَلاَبَتَهَا؛ وَالْمُعْجَمُ: الَّذِي أُكِلَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيْهِ إِلاَّ الْقَلِيْلُ. لسان العرب: (عجم) ج ٩ ص٧٠. يريد أن الكافرَ المستعمرَ يَخْبُرُ أسبابَ الحياةِ في الأمة وعناصر بقائها فيعملُ أن لا يُبقِي ذخيرةً لِحياتها وأسباباً لقوَّتها.

[٣] الْقَتَادُ: شَجَرٌ ذَاتُ شَوْكٍ، يَنْبُتُ بِنَجْدٍ وَتُهَامَةَ أَمْثَالُ الإِبَرِ وَلَهُ وُرَيْقَةٌ غَبْرَاءُ. وَهُوَ ضَرْبَانِ: الأَوَّلُ: الضِّخَامُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ لَهُ خَشَبٌ عِظَامٌ وَشَوْكَةٌ حَجْنَاءُ قَصِيْرَةٌ. وَالآخَرُ: فَإِنَّهُ يَنْبُتُ صُعُداً لاَ يَنْفَرِشُ، وَهُوَ قُضْبَانٌ مُجْتَمِعَةٌ كُلُّ قَضِيْبٍ مِنْهَا مَلآنٌ مَا بَيْنَ أَعْلاَهُ وَأَسْفَلَهُ شَوكاً. لسان العرب (قتد) ج ١١ ص٢٩.

[٤] الحديث له ألفاظ عديدة؛ رواه الإمام أحمد في المسند: ج ٥ ص٤٠٥. والترمذي في الجامع: كتاب الفتن: باب (٦٧): الحديث (٢٢٥٤)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في السنن: كتاب الفتن: الحديث (٤٠١٦). وانظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ج١ ص١٥١-١٥٢: الحديث (١٢٨). والفردوس بمأثور الخطاب: ج ٥ ص١١٠: النص (٧٦٣٩).

[٥] الجمعة / ٨.

[٦] قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ البقرة/ ١٩٤.

[٧] قلتُ: إن الشيخ حبيب رَحِمَهُ اللهُ كان يحسن الظنَّ بمدحت باشا حسب ما ظهرَ له في زمانه، و لم يكن أمرهُ كما هو معروف في زماننا، حيث ظهرت كثيرٌ من الوثائق التي تُدِينُ مثل هؤلاء الأشخاص الذين كان لَهم تأثيرٌ مباشر في تقصُّدِ هدمِ الخلافة وجلب أسباب الحضارة الغربية ووسائلها. فضلاً عن أن الشيخَ رَحِمَهُ اللهُ كان يسألُ اللهَ الرحمة لكلٍّ من أدركه الموتُ وإنْ كان خصماً له.

فما عليه أن يطمعَ في عنقود الثُّريَّا يقطفهُ من صحن السماء. ثم الفكرةُ تكوِّنُ الرجلَ؛ والمرء حيثُ يضعُ نفسَهُ: فمن تصوَّر في نفسهِ العجزَ كان عاجزاً؛ ومن تصوَّرَ فيها المقدرة ثم أتى الأمور من أبوابها فلا يلبثُ أن يكونَ كما تصوَّرُ.

ومن أعارَ التاريخ نظرةَ مستبصرٍ رأى بينَ دَفَّتَيْهِ ما يوقظُ فكرَهُ ويحرِّكُ عروقَهُ ثم يقوِّي عزمَهُ ويبعثُ فيه روحاً تؤهِّلهُ لركوبِ ذاكَ البحر وخوضِ هاتيك الغَمَرَاتِ.

فَكَمْ ثَمَّةَ من قرون خَلَتَ كانت ذواتُ عروشٍ عاليات وقصورٍ شامخاتٍ تَحْكُمُ بلاداً فسيحةَ الأكناف وأقطاراً مترامية الأطراف وأمماً عتيدة وأقواماً أُولي بأس شديد ثم تحطمت العروش وتَهَدَّمَتْ القصورُ وأقفرتِ الربوعُ ونعقَ الغرابُ على التابع والمتبوع. وما كان مُدَبِّرُ هذه التصاريف ومديرُها وموجدُها وسميرُها إلا أفراداً معدودةً استفزَّتْهم الغيرةُ وهزَّتْهُمُ الحميةُ ثم بعثتهم الفكرة فاستضَاؤُا بنور العقل واسترشدوا بنجم الحزم، فكَّرُوا وقدَّروا ودبَّرُوا واستبصرُوا حتى إذا نضجت الفكرة وأخذت مأخذَها الروية وطَفِقَ الشَّرَرُ يَتَراَى من خلال الرمادِ انفجرَ البركانُ وكان ما كان، فإذا هناك عروشٌ خاويةٌ وقصور خاليةٌ وتيجان تنعي أصحابَها تُمزِّقها الأيدي وتدوسُها الأقدام.

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَىالصَّفَا   أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمَرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

فَيَا سُبْحَانَ اللهِ أيُّها المسلمونَ! ألستُمْ رجالاً كما أنَّ أولئكُمْ رجالٌ؟ أتستطيعُ أمراً أفرادٌ معدودةٌ وتعجزُ عنه أمةٌ تعدُّ ثلاثمائة وخمسين ألفَ ألفِ نسمةٍ؟ ثم ليسَ عدوكم بالنسبة إلى عدَدِكُمْ الكبيرُ إلا واحداً من عشرةٍ، ومعكم الحقُّ ومعه الباطلُ، وعوامل الطبيعةِ بجانبكم لا بجانبهِ، ثُمَّ اللهُ معكم إذا كنتم معهُ وكفَى باللهِ وليّاً ونصيراً.

أَلَسْتُمْ تَثِقُونَ أَنَّ اللهَ يُمْهِلُ وَلاَ يُهْمِلُ؛ وإنه كان للخائنين خصيماً؟ ألستم تثقون أن الله يُمْلِي للظالمِ فإذا أخذهُ لا يُفْلِتُهُ[1] وأنهُ لا يُحِبُّ الظالمينَ؟ أَلَسْتُمْ تعلمونَ أن مَرْتَعَ البغيِ وَخِيْمٌ وأنَّ عُقبى الظالمين البَوَارُ؟

على ذلك جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ في عباده من حيث أثبتتهُ التجاربُ وعضَّدتهُ الحكمةُ وأيَّدتهُ نواميس الطبيعةِ وابتسمت عن اطِّرادِ القاعدةِ فيه ملامحُ التاريخ. أَمْ لَمْ يُنَبِّئْكُمْ تاريخُ أقدارِ الأمم بما انْطَوَتْ عليه دَفَّتَاهُ ولا طَنَّ في مسامعكم ما يقولُ الشاعرُ الحكيمُ:

عَوَاقِبُ الْبَغْيِ لَهَا صَرْعَةٌ   تُنْزِلُ السُّلْطَانَ عَنْ عرشِهِ
إِذَا طَغَى الْكَبْشُ بِشَحْمِ الْكِلَى   أُدْخِلَ رَأْسُ الْكَبْشِ فِي كَرْشِهِ

أَمْ حتى الآنَ لم تَنْتَبِهُواْ لِبَغْيِ عدوِّكم وطغيانهِ وظلمه وعدوانه ولا أَحْسَسْتُمْ بألَمِ العذابِ الذي لَمْ يَزَلْ لاحقاً بكم من وجهتهِ والكوارثِ التي لم تَفْتَأْ تَنْتَابُكُمْ على يدهِ؟

أَمَا قَدْ رُفِعَ السِّتَارُ وَكُشِفَ الْغِطَاءُ ولم يبق على وجه الحقيقة من غبارٍ فلا عُذْرَ لمعتذرٍ وَلْيَقُلِ اللائمونَ ما شاءُوا أن يقولوا في المقصِّرين.

---

[1] عن أبِي موسى ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» قَالَ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ هود/ ١٠٢. رواه البخاري في الصحيح: كتاب التفسير: سورة ١١: الحديث (٤٦٨٦).

إنَّ طِفَاحَ قلبي الأملُ ومِلْءَ إِهَابِي الثقةُ: إنَّ اللهَ سينصفُكم من عدوِّكم أيها المسلمون، سيأخذُ بِهذه اليد الشَّلاَّءِ إذا حرَّكتُموها. إن نزولَ المائدة من السماء كان معجزةً لِنَبِيٍّ من أُولي العزم وقد مضى دورُ النبوَّات، فنهوضاً ولو بعضَ النهوض تجدوا نورَ اللهِ يسعى بين أيديكم ليطفئ تِلْكُمُ النارَ.

إنكم لتعلمون إنَّ للهِ رجالاً إذا أرادوا أرادَ، فكونوا أنتم أولئكَ الرجالِ.

ما أريدُ أنْ أَتَنَبَّأَ لكم أو أَتَكَهَّنَ، ولكنها فِرَاسَةُ مؤمنٍ ينظرُ بنور الله، يؤمنُ بأنه تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ لا بدَّ أن يأخذ للمظلوم من ظالمه، وقد طفحَ الكيلُ (وامتلأ الحوضُ وقال قطني) ولم يبقَ في قوس الظلم من عدوكم منْزعٌ وقد طغَى الكبشُ بشحم كِلاه وآن للرأس أن يدخل في الكرش... فقيِّدوها بشرى حتى تتمخَّض بِها الأيام على بساط الوجود، وللدهر تصاريف وما ذلك على اللهِ بعزيز، فاستخيروا الله يَخِرْ لكم واستفتحوا يفتح عليكم ثم استمطروا سحائبَ رحمته يُنَزِّلُ عليكم من السماء ماءً فيحيي الأرض بعد موتِها وكذلك تبعثون.

علىأنَّ أعداءَكم الانكليز قد كشفت عن خبثهم هذه الحربُ العامةُ وظهر سِرُّهُمْ وافتُضِحَ أمرُهم فإذا هم ثعالب في جلود أُسود أو فيران في ثوب أفعوان. خاضوا غمار الحرب[١] ومعهم سبعُ دول تشدُّ أزرَهم: روسيا، فرنسا، اليابان، صربيا، بلجيقا، الجبل الأسود، إيطاليا. وثامنهم كلبُهم دولة بريطانيا العظمى!! وها إنكم ترونَهم ما ورَدُوا مورداً للحرب إلا وباءُوا بخزي عظيم. تمزَّقت الجلود فهرولت الثعالبُ وأنضَى الثوب فتواثبت الفئرانُ. هذه دولة بريطانيا وهذه هزائمها المترشحة خزياً وعاراً، فأين أسطولها الذي كانت تُهدد به العالَم وتمخرُ في بحار الْجَوْرِ والغرور؟ هذه ضفافُ الدَّرْدَنِيْلِ وهذه مياهُ الزرقاء فماذا كان من شأن أبناء السكسون هناك؟ هل استطاعوا ثَمة إلاَّ أن يكونوا أغناماً بين يدي قصاب؟[٢] وما ذاك القصاب إلاَّ أبطال الْمُجاهدين من أبناء الهلالِ.

عَرِّجْ أيها المسلمُ على ساحات القتال هناك وتَشْهَدْ عيناك ما شَهِدَتْ عيناي، فَيَا عَيْنُ مَا أَوْفَرَكِ قُرَّةً[٣]، وَيَا قَلْبُ مَا أَكْثَرَكَ مَسَرَّةً..!

هنالك يُصَعِّدُ المسلمُ نظرَهُ في أنباءِ[*] القُرْآنِ فيذكرُ قولَهُ تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[٤] ﴿**فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمْ الْغَالِبُونَ**﴾[٥] ثم يُصَوِّبُ النظرَ في أعدائِهِ فيتلُو قولَهُ عَزَّ اسْمُهُ: ﴿**مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾[٦].

كذلك شأنُ ملكةِ البحارِ!! دولةُ بريطانيا العظمى!! في مياه الدَّرْدَنِيْلِ ومعها حليفتُها فرنسا تمدُّها بالدوارع والجنود والأسلحةِ والنقود ومن ورائها بقيةُ حلفائها، فكيف بِها لو كانت وحدَها لا حليفَ لها ولا ظهيرَ ولا مؤازرَ ولا نصيرَ؟

كذلك شأنُ ملكةِ البحارِ!! وأسطولِها العظيم!! إزاءَ الأمة العثمانية التي عاندَها الدهرُ منذ عصور وطحنَها الاستبدادُ غيرَ يسيرٍ ثم أنْهَكتها

---

[١] في الأصل المطبوع (الحرل) وهو تصحيف طباعي.

[٢] ثم كانت الخاتِمة أن ولَّوا الأدبارَ بالفشل والعار. (حبيب)

[٣] الْقُرَّةُ: مَصْدَرُ قَرَّتِ الْعَيْنُ قُرَّةً. وَيُقَالُ لِلثَّائِرِ إِذَا صَادَفَ ثَأْرَهُ: وَقَعْتَ بِقُرِّكَ؛ أَيْ صَادَفَ فُؤَادُكَ مَا كَانَ مُتَطَلِّعاً إِلَيْهِ. وَأَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ وَبِعَيْنِهِ؛ وَقِيلَ: أَعْطَاهُ حَتَّى تَقَرَّ فَلاَ تَطْمَعَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. وَصَادَفَكَ مَا يُرْضِيْكَ وَالْمَعْنَى صَادَفَ سُرُوراً. لسان العرب (قرر) ج ١١ ص١٠٠-١٠١.

[*] في المطبوع: (أبناء) وهو تصحيف.

[٤] الإسراء/ ٦٥.

[٥] المائدة/ ٥٦.

[٦] الحاقة/ ٢٨-٢٩.

الحروبُ المتتابعة والدسائس المتوالية و لم تفتحْ عينها بعد لِتَجْمَعَ أمرَها وتأخُذَ حِذْرَهَا وتستكملَ قِوَاهَا، فكيفَ بالانكليز لو تَأَلَّبَ عليهم العالَمُ الإسلامي أجمعُ وأمدَّ دولته الوحيدة دولة الخلافة والهلال بالرجالِ والأموال ومخَّرَ لنا أسطولٌ عظيمٌ وكنا كاملي العَدد والعُـــدد؟ وإن هذا لكائنٌ إن شاء الله إن لم يكن اليوم ففي الغدِ.

ألاَ فَلْتَعْلَمْ دولةُ بريطانيا أن الخِضَابَ قد نَصَلَ وأن ستارَ الأوهامِ قد تَمَزَّقَ وأنهُ قد دنا زمنُ أخذ الثأرِ وغسلِ العار وصيحة حماة الإسلام بصوت واحد: الانتقامُ الانتقامُ.!

التَّارِيخُ

وأمَّا التاريخُ فلأنه محكمةٌ كبرى. وعدوُّكم أيها المسلمون كما عرفتموه ربُّ جناياتٍ، وشأنُ الجانِي أن ينقادَ إلى المحاكم صاغراً كيمـــا يخزيه اللهُ ويذوق وبالَ ما جَنَتْ يداه... فَهَلُمُّوا إلى محكمة التاريخ في ظهرِ الغيب لتحاكموا عدوَّكم على عدوانـــهِ وأنفسَـــكُم علـــى تقصيرها حتى يأتِي أمرُ الله؛ وكلٌّ آتٍ قريبٌ.

مَحْكَمَةُ التَّارِيْخِ الْكُبْرَى
وَالانْكِلِيْزُ وَالْمُسْلِمُونَ
﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْخِزْيِ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْتَدُونَ﴾

تنحصرُ الأزمنةُ في ثلاثة: مَاضٍ لا يُستعادُ، وحال تمثلهُ آناتٌ متتابعة تمرُّ مرَّ الخاطف لا تكاد تقبض عليها يدُ الوجود، ثم مستقبلٌ رحبٌ صدرهُ، مظلمٌ قعرهُ، لأجله العملُ وعليه المدارُ، فما أوسعكَ يا صدرَ الغيب، ثم ما أوفرَ قيمتك يا زمنَ المستقبلِ.

المستقبلُ: غَدُكَ الذي تعملُ له ثم يومُكَ الذي تسعدُ فيه أو تشقَى، ثم أمسُك الذي يرمي بك في حِجْرِ التاريخ، فالمستقبل هو الكلُّ في الكلِّ.

أسخفُ الناسِ رأياً من شغلهُ يومه عن غَدِهِ، وأكبرُهم حماقة من طوَّحت به ذِكرى أمسِه عن كليهما، وإنما اللبيبُ الألمعيُّ من يعمدُ إلى الحياة ونعيمِها يلتمسُهما بين ثنايا المستقبلِ.

أيها المفتونُ بِأَمْسِهِ! لستَ بمدركٍ له. وأيها المغترُّ بيومه! إنه ربما يأتيك بالنوائب. ثم أيها الغافل عن غدهِ! إنك لفِي ضلالٍ مُبين.

هي أيامٌ ثلاثةٌ لا رابع لها ينقضي عمرك بينها ثم مصيرك ومصيرها التاريخ، فاجهد لنفسك إذا ما وقفتَ أمام تلك الْمَحكمةِ الكُبرى أن تكون ذا جبهةٍ بيضاء.

وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيْثٌ بَعْدَهُ   فَكُنْ حَدِيْثاً حَسَناً لِمَنْ وَعَى

أَتظُنُّ أَنَّكَ خُلِقْتَ عَبَثاً؟ كَلاَّ:

إنَّ هَذَا الْوُجُودَ أَعْظَمُ شَأْناً   أَنْ يُعَرَّى عَنْ حِكْمَةِ الإِيْجَادِ

أَمْ تَزْعُمُ أَنَّ أَعْمَالَكَ تَذْهَبُ سُدىً؟ هَيْهَاتَ:

لِكُلِّ عَيْنٍ أَثَرٌ مِنْ بَعْدِهَا   فَاسْتَبْقِ مَا يُكسِبُ بَعْدَكَ الثَّنَا

إن وراءَك من يناقشونكَ الحسابَ وقد طوتْكَ يدُ الأيام واستحالَ جسمُكَ إلى ترابٍ! فَاذْكُرْ يوم يُؤْتَى بك إلى محكمة التاريخ الكبرى.

رُبَّ أجيالٍ لا في الأصلابِ بعدُ ولا في الأرحام يلقحُ بِهم القابلُ، حتى إذا تَمخض بِهم على بساط الوجود رابك منهم أخصام ألــدَّاء وراعك فيهم حكم عدل فاحذر أن يكون جزاؤك يومئذ شرَّ الجزاء.

لكأنِّي بالزمان وقد دار على غير محور، فإذا هنالك أبصار ليس عليها غشاوة وبصائر لم يطمس عليها العمى ثم رؤُوس لا سكرت بخمرة الطيش ولا صعَّرت خد الغرور؛ وإذا محكمة التاريخ ملئى بأمثال أولئك النبلاءِ المفكرين.

لكأنِّي بمنادي الأمم وقد نادى فيها يدعُو الواحدةَ بعد الأخرى، فمنهم المقصِّرون، أولئك الذين ظلموا أنفسهم بتركِ الواجب وجهــلِ مغامز الحياة ثم بالاستكانة للحوادث والاستسلام لصروف الدهر تعبث بِهم الليالي كيف تشاء.

ومنهم المعتَدُون، أولئك الذين امتَطَوا غاربَ الجدِّ وقبضوا على عَنَانِ العمل وتمتَّعوا بمظاهر الحياة، حتى إذا أطغتهم النعمةُ وقادهم الهــوى واسْتَزَلَّهُمُ الشيطان تسلَّقوا غير ذروة واعتسفوا غير طريق[1] فولعوا برقاب الأحرار أن يمتلكوها ودماءَ الأبرياء أن يسفكوها وحرمــات الضعفاء أن ينتهكوها، وما فريستُهم في ذلك المضمار إلا المقصِّرون إذ نصبوا لهم حبائل من أنفسهم: فعمدوا إلى بسطاء غرَّروها وجهلاء كادوها ومساكين فاستضعفوها وأبالسة قامروها؟ فإذا هما فريقان: قوي سعد بشقاء ضعيف، أو محتال عبث بأقدار مخدوع. وإن شئت فقل غَاشِمٌ أجهزَ بمدية خداعهِ على بائسٍ مسكين.

لكأنِّي بالمنادي وقد نادى بالفريقين، فإذا في مُقَدِّمَةِ القومِ الانكليزُ والمسلمون.

اللهُ أكبرُ من ذاك اليوم العصيب يوم يندلعُ لسان السائل ولا يدري المسؤول كيفَ يجيبُ.

رُحْمَاكَ يا مسلمُ! ألَم يخْلُقْكَ ربك حُرّاً؟ فكيف رضيت لنفسك رِبْقَةَ الاستعباد؟ أليست النفوسُ مجبولةً على حبِّ عزِّها؟ فكيف رضيتَ لنفسك الذُّلَّ والهوانَ؟ أم كيف تَسَنَّى لكَ أن تشذَّ عن مقتضى الفكرة وإيجاب الطبيعة؟

رُحْمَاكَ يا مسلمُ! ألَم يَصِفْكَ قرآنُك بالعزَّة؟ ألم يعهد إليك نبيُّكَ أن لا تذل إن كنت مؤمناً؟ فكيف عصيت نبيك وما أطعــت أمــر قرآنك؟ أم خَمَدَتْ إحساساتك وماتت عواطفك حتى صِرْتَ لا تفرقُ بين الضدين: بين كونك عزيزاً وكونك ذليلاً؟

إن الذُّلَّ مرُّ المذاق وإن العزَّ ما فوقه حلاوةٌ، فكيف خَفِيَ عليك طعمُهما؟ أم لَم تكن ترى اليد العليا خيراً من اليد السفلى، فلم تُبَــالِ أنك مقهور مأسورٌ تتحكَّم فيك المطامع وتَعْبَثُ بك الأهواء؟

رُحْمَاكَ يا مسلمُ! ألَم تكُ تعلم أن للهِ عليك موثقاً أن لا تَأْلُو جهداً في الذبِّ عن حوزة دينك، وبيضة بلادك، ومجد شــريعتك، ليعلــو صوتُ الحقِّ، ويخفتُ صوتُ الباطلِ، فتقام حدود الله في أرضه كما شرعها على لسان عباده المخلصين؟ فكيف لَم تغضب لدينك وحماهُ مستباحٌ، ولأوطانك وصعيدها ملوَّث، ولشريعتك ونجمُها آفِلٌ، وللحق وأنت عاجزٌ أن تجهر به، وللباطل وقد غمرَكَ تيَّارُهُ، ولحدودِ الله وهي معطلةٌ بين ظهرانيك، وإنما مقاليد أمورك بيد عدوك وعدو دينك يحكمُ فيك كما يريد هواه، لا كما يأمر دين الله؟

[1] العَسْفُ: السيرُ بغير هداية والأخذ على غير الطريق، وكذلك التَّعَسُّفُ: ركوب الْمَفَازَةِ وقطعِها بغير قصدٍ ولا هداية ولا توخِّي صوب ولا طريق مسلوك. وعَسَفَ فلانٌ عسفاً: ظلمَهُ، وعسفَ السلطانُ: ظلمَ. لسان العرب (عسف) ج٩ ص٢٠٦.

رُحْمَاكَ يا مسلمُ! أيُّ جامعة كانت بينك وبين أولئك الفَجَرَة الطغام حتى لذَّ لك الذُّلُّ بين أيديهم، والأسرُ في أغلالهم، والرضوخ لفرعنتهم، والرضا بأهوائهم، إلا أن تصغَرَ أنت وهم يتعاظمون وتضعف ويقوون، وتَهون ويعلون، وتفقر ويثرون، وتذل ويعزون، وتشقى ويسعدون وهكذا يحيون بموتك ثم يكونون قوماً عالين.

تَاللهِ ما كان بينكُما من جامعةٍ: فالدينُ غير واحد، والجنسُ غير واحد، والوطنُ غير واحد، والتقاليد غير واحدة، والعاداتُ غير واحدة، فكيف أمكنكَ العيشُ في ظل من لم يجمعك وإياه جامعٌ. بل كلُّ طرائق الحياة كانت بينكما مدعاةً للتفريق كأنما خلقتما على طَرَفَي نَقِيْضٍ؟

ما كادت تَتَجَاوَبُ أصداءُ هذه الأسئلة في فضاء الْمَحكمة حتى امتزجَ بها صوتان –كما دوَّى الرعدُ من خلال الغمام– مِلْءُ أحدهما لَوْمٌ وَعَذْلٌ ودهشةٌ واستغراب، وطفاحُ الثاني تَلَهُّفٌ وَتَأَسُّفٌ، وحرقةٌ وبؤسٌ، ثم تشديدٌ لاَئِمَةٍ وتحميلُ تَبِعَةٍ ومطالبةُ حُقُوقٍ.

أمَّا الصوتُ الأوَّلُ: فضجيجُ المتفرِّجين في ذاك المجتمع العام من طبقات الأمم جمعاءَ يقولون: حَنَانَيْكَ يا مسلمُ يا ابنَ النور وربيبَ الظلام! كيف مرَّ بك مثل هذا الجفاء ثم صبرتَ على مُرِّ العذاب؟ إن الصبرَ لَمحمودٌ ولكن في غير مواطن الذُّلِّ، فكيف تجرَّعْتَ كأسَ صابه؟

أَلَم يكن بين جوانحكَ قلبٌ حسَّاسٌ وفي أعصابك عِرْقٌ نابضٌ؟ أم كنت تخشَى الموت فاستعذبتَ دونه الهوانَ؟

ها إن الموت الذي كنت تخشاهُ قد أصابك، وها أنك قد انحلَّ جسمُك إلى رفات، ولكن ذاك الهوان لاحقٌ بك عارهُ، ها أنك قد مُتَّ ولكنه حيٌّ لن يموتَ. هلا تذكرت يَوْمَ يُذَكَّرُ كُلُّ امْرِئٍ بعَمَلِهِ وتأتي كل أُمَّةٍ بكتابها في مثل هذا الموقف الرهيب؟ أما وشرفُ الإنسانية ومجدُ التاريخ يا مسلمي القرن الرابع عشر إِنَّكُمْ لَمُقَصِّرُونَ.

وأما الصوتُ الثاني فعويلُ الأحفاد يَشْكُونَ من تبعة الأجداد، وصراخُ الأخلاف يحاكمون أعمالَ الأسلاف يقولون: ألم تكونوا تعلمون أنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ ذريةً أنتم تاركوها، وإن أمامكم مستقبلاً طويلاً، فماذا قَدَّمْتُمْ من العمل لهذا، وماذا ادَّخَرْتُمْ من التراثِ لأولئك ؟ لقد جَنَيْتُمْ علينا وعلى أنفسكم وكنتم لنا ولها ظالمين. وما أورثتمونا إلا الذُّلَّ، وما ادخرتم لنا إلا الْهَوَانَ، وفي طيِّهما مشاكلُ ومتاعبُ وكوارثُ ومصائبُ. ما حفظتم لنا وطناً نعيش فيه عيشَ الكرام، على أن طِينتَنا عُجنت من ترابه وأجسامنا غُذِّيت بمائهِ وهوائه، أورثوكم فما حفظتم التراثَ، ثم لَمَّا جئنا أَوْرَثْتُمُونَا عَدَماً. أولدوكم أحراراً، فلما أفضَتِ النَّوْبَةُ إليكم أولدتُّمونا وفي أعناقنا الأغلالُ.

أَلَم تكُنْ هذهِ الأوطانُ أمانةَ أسلافكم من قبلُ، فكيف أضعتموها؟ أَلَم تكن وديعةَ جيلٍ لآخرين، فأين حظُّنا منها، ولماذا لم تحفظوها؟ كان لكم كرامةٌ فرضيتم بِمَسَاسِهَا. وكان لكم عزَّةٌ، فَقَوَّضْتُمُوهَا من أساسها. اسْتَنَمْتُمْ للحوادثِ فغادرتكم أحاديث[1]. واستسلمتم للكوارث فتركتم ألاعيبَ. لا هَمَّتْكُمْ أنفسُكم ولا عَنَيْتُمْ بالخلائفِ من بعدها، فما كان همُّكم في الحياة أو كنتم تصنعون ماذا؟ أما إنه الحنظلُ أنتم زرعتموه، ونحن أدركنا موسمَ حصاده، وإن نصيبكمُ منه لأوفر. لقد كان حَرِيّاً بكم أن تذكروا مثل موقِفكم هذا في يومكم هذا.

[1] تَسَنَّمَ السحابُ الأرضَ جادَها. وتسنَّم الفحلُ الناقةَ إذا ركبَ ظهرَها، وكذلك كلُّ ما ركبتَهُ مقبلاً أو مدبراً فقد تَسنَّمتَهُ. لسان العرب: (سنم) ج ٦ ص٣٩٤.

إليك اللَّهُمَّ المشتكَى من أسلاف ما أورثُونا إلا العناءَ. ما نَقَصُوا عدداً ولا فَقَدُوا – لو أرادوا – عُدَداً، ولكنهم جَهِلُوا فَخُدِعُوا، وربما تنازعُوا ففشلوا ثم جبنوا واستيأسوا وكانوا لنا ولأنفسهم ظالمينَ: إنَّهم –كما حَفِظَ أعمالَهم التاريخُ– لا دينكَ نصرُوا، ولا أوطانَهم حفِظُوا، ولا ذَادُوا عن حقيقة ولا ذَادُوا عن حِمًى، وإنما مرُّوا بالحياة وهم أمواتٌ، فما كانوا في الوجود إلا غَوْغَاء.

أَمَا وَشَرَفِ الإنسانيةِ ومجدِ التاريخ أيها الأسلافُ من مسلمي القرن الرابع عشر إنكم لَمُقَصِّرُونَ.

هنالك ارتعدت فَرَائِصُ واحمرَّت وَجَنَاتٌ ولم يكد المسؤول يجري جواباً إلا دقَّاتُ قلب واجفٍ وقطرات جبين محمرٍّ مما لا يُنَفِّسُ كَرْباً ولا يكون إلا حجةً على صاحبه في مثل ذاك الموقف العصيب.

ثم سِيْقَ المقصرونَ حيثُ سيقوا وجيءَ بالمعتدين فكان الموقفُ أدهشَ والأمرُ أدهَى وأمرُّ، إذ مَاجَتِ الأمم بعضُها ببعض وعَلَتْ الصيحةُ وقامت الضجَّةُ ونادى منادي الموقف: ألا لَعْنَةَ اللهِ على الظالمينَ.

ثم خَفَّتِ الْجَلَبَةُ وخَفَتَتِ الأصواتُ فلم يسمع إلا صوتُ المناقشة للحساب:

لاَ مَرْحَباً؛ وَلاَ أَهْلاً؛ وَلاَ مَنَاخاً؛ وَلاَ سَهْلاً؛ وَلاَ جَمَلاً؛ وَلاَ رَحْلاً!

آهٍ ثُمَّ آهٍ: يا أعداءَ الإنسانيةِ وأعداءَ اللهِ! بأيِّ وجهٍ قدمتم على محكمتها وفيها سِجلٌّ أعمالكم مسطورٌ وتاريخُ حياتكم محفوظٌ؟ تلك صحائفُ خُطَّتِ بمِدَادٍ من دمٍ وحروف من نارٍ وما خلال سطورها إلا ظُلْمٌ وظَلاَمٌ، وخُذُوا كتابكم فاقرؤه على أعينِ الناس ثم اشهدوا على أنفسكم أنكم كنتم على الإنسانية شَرّاً وَبِيْلاً.

لقد نَصَلَ الخِضَابُ ورُفع الستار وبدت الحقائق بارزةً للعيان، فاقرؤا كتابَكم على أعيُن الناس لعلهم يشهدون.

ها أنتم هؤلاء كنتم شَرَّ عبادِ الله لعبادِ الله، كنتم سماسرةَ الفتنِ توقدون نارَها بين الأمم حتى إذا اشتدَّتِ الحربُ وحَمِيَ الوَطِيْسُ وَوَهَتْ قِوَى الغالبِ والمغلوبِ وَتَمَّ لَكُمُ الدَّسْتُ مددتُم يد المنتهز وفَغَرْتُمْ فمَ النَّهَم فَازْدَرَدْتُمُوهَا لقمةً سائغةً وغنيمة باردةً. وما عليكم إنكم أنضجتموها بنار كان وقودُها نفوساً بريئة ودماءً طاهرة.

كنتم تنسجونَ من غَزْلِ السياسةِ رداءَ رحمةٍ وحنانٍ ثم تخيطونهُ بإبرٍ من شَرٍّ وخيوطٍ من شَرَرٍ وتجعلون في بطانته شيئاً من السُّمِّ القاتلِ ثم تعمدون إلى البسطاء من الأمم والضعفاء من الشعوب فتلبسونَهم ذاك الرداءَ حتى إذا قضيتم على حياتِهم وتفسَّخَت منهم الأشلاء أَوْلَمْتُمْ على لحومهم وليمةَ ذواتِ الأنياب.

كنتم تقولُون غير ما تفعلون وتظهرُون غير ما تضمرون، وقد أرخيتم ستاراً وجعلتم الأيدي تلعبُ من ورائه، فَوَارَحْمَتَاهُ لأممٍ هنالك صرعتُموها بمخالب الغشِّ ثم أجهزتم عليها بسكِّين الغدرِ وهكذا ضحيتموها تحت أقدامِ المطامعِ والأهواءِ.

طالما لَبِسْتُمْ ثوبَ الْحَرْبَاءِ واستعملتم الألفاظ على عكسِ ما وُضِعَتْ له؛ فاتخذتم العدلَ قنطرةً للظلم؛ والصدقَ سمساراً للكذب؛ والحريةَ طريقاً للاستبدادِ؛ والصلاحَ مجلبةً للفسادِ تشويهاً للحقائق وتَمويهاً على البسطاء الأغرارِ لتمتصُّوا بذلك دماء الشعوب وتستَرِقُّوا رقابَ

العباد وكذلك ما زلتُم تقتلونَ الإنسانية باسم الإنسانية حتى افْتُضِحَ أمرُكم وجاء يومُكم الموعود؛ فاليوم يؤخذُ للمظلومِ من ظالمِهِ واليومَ تبردُ الإنسانية كبداً أو تشفي غَلِيلاً.

كنتم أعداءَ الأمم عامة والمسلمين خاصة وكنتم على بني الإنسان أشدَّ ضرراً من الوحش الضاري: ما اسْتَعَرَتْ ناراً إلا وأنتم موقِدُوها ولا ثارت فتنة إلا وأنتم مُحَرِّكُوهَا، فَقُبْحاً لهاتيك الجرائم ولاَ رَحِمَ اللهُ هذه الوجوه.

قبضتم على خِنَاقِ أربعمائة ألفِ ألفٍ من بني الإنسان وأنتم لا يتجاوزُ عددُكم العُشْرَ من أولئك المساكين البائسين صرعتُموهم اغتيالاً وحاربتُموهم بسلاح المراوغةِ والمخاتَلةِ حتى إذا وقعوا في الفخِّ لم تَرْقُبُواْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّةً ولا اتَّقيتُم فيهم خالقَ الأرض والسماء. تسعدون بشقائهم ثم تتخذونَهم كالعجماوات جُرْحُهَا جُبَارٌ. تتعاظَمون عليها وبهم تَمَّتْ لكم العظمةُ، وتحتقرونَهم ولولاهم لكنتم أحقرَ مِن لا شيء. تتحكمون فيهم تحكُّمَ السيدِ في عبدِهِ وهم أهلُ الدار وأنتم الغرباءُ. ثم الطَّامَّةُ الكبرى أنكم أعميتُم أبصارهم أن يشهدوا أعمالكم هذه بِأَسْوَأَ منها وأقبحَ وصمةً وأكبرَ ضرراً: وذلك أنكم تفسحونَ لهم في مجالَي الشهواتِ الحيوانيةِ وتتفنَّنون في تمهيد السُّبُلِ لهم إلى إفساد الأخلاق بمثل هاتيك المخازي وتخدمونَهم أكثر من إبليس في طرق الفظائع، حتى إذا عَامَت النفوس في تيار هواها واشتدَّ من الأبصار عماها سمَّيتم ذلك حرية وعدلاً وإحساناً وفضلاً ومَنَنْتُمْ على القوم من ذلك بما كان أُسَّ النقمةِ لهم والبلاء عليهم ثم لا يكسبُهم بين الأمم إلا عاراً وشناراً.

ما كان مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ المسلمينَ إلا مثل السَّمَنْدَلِ[1] مع الجرادِ؛ تَسَلَّطْتُمْ على ذاك العدد الكبير فابتعلتُم أكثرَ من ثُلُثِهِ في سُنَيْهَاتٍ معدوداتٍ، عشراتُ الملايين خدعتموهم كما تُخْدَعُ العذراءُ في خُدْرِهَا، ثم أوثقتموهم بالأصفادِ والأغلال، اتخذتموهم مَنَايِحَ تستدرونَها أشبه بالسوائمِ، ثم طفاح قلوبكم أحقادٌ عليهم وسخَائِم.

أَمَتُّمْ لهم كلَّ حقٍّ فأحييتم لكم بذلك كل باطلٍ، وكانوا سلاحَكم الذي به صِرْتُمْ أهلَ حَوْلٍ وَطَوْلٍ، ثم لم يكن حظهم لديكم إلاّ أن وسَّعتم نِطَاقَ مطامعكم فيهم فلم تكتفوا بِسَلْبِ حقوقهم المادية بل صَمَّمْتُمُ الإغارةَ على حقوقهم المعنوية كذلك: فَنَاوَيْتُمُ العداءَ مُعْتَقَدَاتَهُمُ ومقدَّساتَهم العظمى، وفي مقدمة ذلك قَبْرَ نبيِّهم وقرآنَهم الذي هو ينبوعُ دينهم[2]، ترون ملتهم أمراً زائداً في نظام الكون يجبُ مَحْوُهُ من خريطة الوجودِ، حتى صَرَّحَ بكل ذلك كِبَارُ رجالكم على منابر السياسة وفي مؤلفاتِهم الحيوية[3].

ثم لَمَّا كانت تلك النوايا الخبيثةُ لا يمكن إخراجها من القوةِ إلى الفعل ما دام للمسلمين رابطةٌ تَلُمُّ شتاتَهم وتجمعُ كلمتَهم أزاء مثل هاتيك الطوارق؛ ألا وهي مقامُ الخلافة العظمى، فقد حصرتم آمالكم قبل كل شيءٍ في السعي وراء قَضِّ بنيانِهم وتقويض أركانِها ليتسنَّى لكم محو المِلَّةِ الإسلامية بمحوها من خريطة الوجود.

ثم رأيتم أنَّ خيرَ طريقةٍ توصلكم إلى حلِّ هذه العقدة أن تبذروا الشقاق والنفاق بين طبقات الأمة الإسلامية فَطَفِقْتُمْ تلتمسون الوسائل وتنصبون الحبائل وتفعلون الأفاعيل بما فطرتم عليه من الخداع والمخاتلة لهذا الغرض السَّاقِطِ كذلك، استكمالاً لسلسلة المقدمات التي

---

[1] في الأصل المطبوع (السمرمد) و لم أجده. ولعله (السَّمندلُ) وهو طائر. والسمرمرُ: الغولُ لا أصلَ له خيالٌ. القاموس الْمُحيط للفيروز آبادي: (سمن).

[2] لم يكن في عهدِ تصنيف المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ الكتابَ أمرُ فلسطين حيث تعهَّد الإنجليز لليهودِ، ثم مكَّنُوهم منها بألاعيب خبيثة، وبمساعدة أنصارِهم من العُملاء الخونة لأمَّتِهم ودِينهم.

[3] رئيس وزراء بريطانيا خلال العهد الحميدي، وقف في مجلس وزراء بريطانيا رافعاً القُرآن الكريم بيدِهِ مخاطباً زملاءه قائلاً: (ما دام هذا الكتابُ في أيدي المسلمين يتدارسونه ويُقْبِلُونَ على العناية به، فلن تقومَ لنا قائمةٌ، فلا بد من العملِ على انتزاع هذا الكتاب من عقولهم وقلوبِهم). صحوة الرجل المريض: ص١٩٩.

تنتهي بكم –لاَ قَدَّرَ اللهُ– إلى تلك الغاية السَّفِيْلَةِ التي هي جُلُّ أمانيكم، ألا وهي مَحْوُ الدِّيْنِ الإسْلاَمِيِّ مِنَ الْوُجُودِ.

هَذَا مُجْمَلُ تَارِيْخِ حَيَاتِكُمْ بَيْنَ الأُمَمِ وَالْمِلَلِ: إِذْ كُنْتُمْ بَاكُورَةَ الْفِتَنِ وَدَعَامَةَ الشُّرُورِ وَمِثَالَ الْعَدَاءِ للهِ وَلِعِبَادِهِ فَتُعْساً وَنُكْساً لِمِثْلِ هَذِهِ الْحَيَاةِ التَّارِيْخِيَّةِ يَا أَعْدَاءَ اللهِ ثُمَّ أَعْدَاءَ الإِنْسَانِيَّةِ.

هُنَا انتهت مناقشةُ الحسابِ فَاسْوَدَّتْ نواصي القوم وأخذَتْهم الرَّجفةُ وتَكَهْرَبَتْ منهم الأعصابُ وقد اعترفوا بذنوبهم واعتذروا منها –وَرُبَّ معذر أقبحُ من قذرة– بأنَّها كانت من بَطَرِ النعمة وخَبَثِ الطينةِ.

ثم أخرجوا من غرفة الحكم تشيِّعهم أمةٌ وتستقبلهم أخرى يحمدون الله الذي خَضَدَ شوكةَ طغيانهم وَجَدَعَ أنف غرورَهم. ثم يسألونه تعالى أن يستأصلَ شأْفَتهم ولا يدعَ منهم على الأرض ديّاراً، قطعاً لدابرِ فسادِهم وَمَحْقاً لجراثيم خِداعهم عسى أن تستريحَ الإنسانيةُ وأبناؤُها من غَوَائِلِ الفتن وحبائل المكرِ ردحاً من زمانٍ[1].

ثم يلتفتون إليهم ويقولون لهم: لقد طَمَسَ على نور بصيرتكم الغرور: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الاَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[2]. فنسيتم أن للتاريخ محكمةٌ كبرى تَزِنُ الأعمال بالموازين القسط ثم تحاسب على النقير والقِطَمِيْرِ، فذوقوا عذاب الخزي اليوم بما كنتم تعتدون.

---

[1] على ما يبدو للمتتبِّع لِمَا يجري اليوم في العالم، أن بريطانيا لَم تعد كسابقِ عهدها، وأصبحت أقربَ إلى الخادمِ الغَادِرِ لأمريكا ربيبَتها، فهي كالأفعى ملتفَّة حولَ عُنق أمريكا توجِّه أعيُنَها إلى أفاعيلِ الغدر والشِّقاق بين أُمَمِ العالَم، وتحاولُ من خلال ذلك أن تَرْغَمَ أنفَ أمريكا لتكتُمَ أنفاسه، ولعلَّها بذلك تسترجعُ مكانتَها التي كانت عليها من قبل في استعباد الشُّعوب وقهرهم، هكذا تبدو لنا الصورةُ، ولعل الله يُهلِكُهم بما صنعوا ويُعلِي كلمةَ الحق والدين بدولةِ أهل الإسلام الخلافة على منهاجِ النبوَّة بإذنه تعالى وهو على ما يشاءُ قديرٌ، وأنتَ أيها المسلمُ أهلٌ لذلك؛ فَاعْمَلْ فإن القومَ عاملون.

[2] الحج/ ٤٦.

نِهَايَةٌ

وهذا آخر ما دَعَانِي إليه داعي الحق، وأملاهُ عليَّ لسانُ الحقيقة، ثم اضطرَّني إلى تسطيره الواجب. ولكن الحقَّ يعوزهُ الناصر، ولا بــد للحقيقة من مساعد، والواجب يستدعي من يقوم بأدائه، وأولئك هم إخوانِي المسلمون، ألا وإن فيما خطَّت يمــيني مبــانِي ومعــانِي ومغازي، فالأُولى قشورٌ، والثانيةُ لُبَابٌ، والثالثة هي روح العمل وقطب رحاهُ، وإليها استلفتُ أنظارَ إخوانِي المسلمين عساهم إذا مــا قرأوُا المبنَى وفقِهُوا المعنى ثم تدبَّروا المغزَى أن لا يَدَعُوهَا نفحةً في وادٍ ونفخَةً في رمادٍ فإن فضلَ الأقوال بالأعمال ولولا العملِ لما كــان للقول مِقْدَار، وإلى الله جلّ ثناؤه أبتهل أن يمنَّ بالتوفيق للعمل كما منَّ به في القول وأن يجعل رائد كليهما الإخلاص بحرمة نبيِّه وصفيِّه ﷺ تسليماً كثيراً ثم أسأله تقدَّست أسماؤه العناية والهداية وأحمده حمداً كبيراً على البدايةِ والنهايةِ.

آخِرُ كَلِمَةٍ

إخْطَارٌ وَاعْتِذَارٌ

بدأتُ بتأليفِ هذه الرسالة في (نابلس) من أعمال (بيروت) وأنا قافلٌ من (القدس الشريف) ١٥ رجب ١٣٣٣ وأنْهَيتها ٢ رمضان في قرية (المزَّة) من أفنية (دمشق). ثم ضلَّتْ مني وأنا ذاهبٌ إلى (صُوفَر) من أعمال (لُبنان) مع أشياءَ أُخَرَ أهمها أربعُ مسائلَ لي في التركية. ثم استأنفتُ العملَ في (حلب)[1] يوم الخميس ٢٠ شوال من السنة المذكورة وأنا مُتَجَوِّلٌ في الأنحاءِ السورية.

يَوْماً بِحَزْوَى وَيَوْماً بِالْعَقِيقِ وَبِالـ ـعُذَيْبِ يَوْماً وَيَوْماً بِالْخُلَيْصَاءِ

ثم فرغتُ منها ١ محرم ١٣٣٤ في فروقِ دَارِ الْخِلاَفَةِ الْعَلِيَّةِ. فكانت بِنْتَ التَّجْوَالِ وَرَبِيْبَةَ الشَّتَّاتِ. ولربما كتبتُ فيها وللقلم حركةُ المرتعشِ من سير (العجلة) بينَ صعودٍ وهبوط أو اضطرابِ (القطار) يجوب القِفَارَ أو اهتزاز (الباخرة) تَمْخُرُ في عَرْضِ البحار. بل وربما كتبتُ فيها وأنا بِمَسْمَعٍ مِنْ دَوِيِّ الْمَدَافِعِ وَزَفِيْرِ النِّيْرَانِ فِي سُوحِ الْوَغَى وَمُعْتَرَكِ الْمَوْتِ عَلَى ضِفَافِ (الدَّرْدَنِيْلِ).

فرجائي إلى القُرَّاء الكرام إذا ما عثَرُوا على زلَّة أن يغتَفِروها في جنبِ هذا الشتات يلتمسون لي من بين ثناياه عذراً؛ لا سيما ومثل هذا التأليف في تنوع مباحثه وغرابة منواله يضطر المؤلف إلى كثير من الأدواة وما كنت أملك منها غير القلم والدواة. هذا مع قِلَّةِ البضاعة وشَتَاتِ البالِ وشيء من النقصِ في العافية. نسألُ اللهَ من العافية تمامَها ومن النعمة دوامَها ونبتهلُ إليه عزَّ شأنهُ أن يجعلَ أعمالنا خالصةً لوجههِ الكريمِ إنهُ بعبادهِ رؤوفٌ رحيمٌ.

[1] وهذا الذي أردتُ بقولي في خطبة الكتاب: وأعيدُ سبكَها وجرت ثانيةً فلكُها. (حبيب).

خِتَامُهَا مِسْكٌ

أَوْ تَقْرِيْظُ شَيْخِ الإسْلاَمِ وَمُفْتِي الأَنَامِ

ولَمَّا كُنْتُ فِي دَارِ الْخِلاَفَةِ الْعَلِيَّةِ عَرَضْتُهَا عَلَى أَنْظَارِ مَنْ تَشَرَّفْتُ بِإِكْسِيْرِ أنظارِهِ، واستنارَ ليلُها بضوءِ نَهارِهِ، الإمامُ الْهُمَامُ، حَبْرُ الأُمَّةِ وَحُجَّةُ الإِسْلاَمِ، بَحْرُ الْعُلُومِ الطَّامِي فِي الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ، وَغَيْثُهَا الْهَامِي فِي الْفُرُوعِ وَالأُصُولِ (رَجُلُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ) الْمُتَـدَفِّقُ قَلْبُـهُ الطَّاهِرُ غَيْرَةً وَحَمِيَّةً عَلَى الإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِيْنَ، اعْتِصَاماً بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَالطَّرِيْقَةِ الْمُثْلَى، مَوْلاَنَا شَيْخُ الإِسْلاَمِ وَمُفْتِي الأَنَامِ، صَـاحِبُ الدَّوْلَةِ وَالسَّمَاحَةِ **مُوسَى كَاظِمِ أَفَنْدِي الْمُعَظَّمِ**. نَفَعَ اللهُ الْمُسْلِمِيْنَ بِنَوَايَاهُ الطَّاهِرَةِ، وَعُلُومِهِ الزَّاخِرَةِ، وَأَعْمَالِهِ الْفَاخِرَةِ، وَأَدَامَ بَدْرَ سُعُودِهِ فِي سَمَاءِ وُجُودِهِ سَنَداً لِلشَّرِيْعَةِ الْغَرَّاءِ وَالْمِلَّةِ السَّمْحَاءِ.

فَخَطَّ عَلَى ظَهْرِهَا بِقَلَمِهِ الشَّرِيْفِ مَا هَذِهِ صُورَتُهُ:

بين الإسلام خلافتك درجة أهميت ومرتبة قد سبتي وبو خلافتك آنجق دونت علية عثمانية ابله قيام وبناسني ادلة مقنعه سيله اثباته دائـر اولان بو اثرك مؤلفي موصل علما سندن السيد حبيب العبيدي افندي شايان تبريك وتلطيفدر.

وَهَذَا تَعْرِيْبُهُ:

إِنَّ مُؤَلِّفَ هَذَا الْكِتَابِ السَّيِّدُ حَبِيْبُ أَفَنْدِي الْعُبَيْدِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْمَوْصِلِ حَقِيْقٌ بِالتَّهْنِئَةِ، جَدِيْرٌ بِالْمُكَافَأَةِ إِذْ أَثْبَتَ فِيْهِ بِالأَدِلَّةِ الْمُقْنِعَةِ مَـا لِلْخِلاَفَةِ مِنْ عُلُوِّ الْمَكَانَةِ وَفَرْطِ التَّقْدِيْسِ بَيْنَ الْمُسْلِمِيْنَ وَأَنَّ هَذِهِ الْخِلاَفَةَ قَائِمَةٌ بِالدَّوْلَةِ الْعَلِيَّةِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَبَاقِيَةٌ بِبَقَائِهَا.



السيرة الذاتية للمصنف

السيد محمد حبيب بن السيد سليمان العبيدي من ذريَّة السيد مُحَمَّد أبي البركات جد السيد عبيدالله الذي ينسب إليه السادَةُ (العبيديُّون) في الموصل. ولد في مدينة الموصل في ٢ ذي الحجة سنة (١٢٩٦هـ– ١٨٨٠م). وتوفِّي سنة (١٩٦٣م). وشيَّعه أهالي الموصل ووجهاؤها وعلماؤها.

نَشْأَتُهُ الْعِلْمِيَّةُ:

درس في دار أبيه سليمان العبيدي على مدرس خاص، ثم دخلَ المدرسة الرشيدية العثمانية فتخرَّج منها، وحصل على الإجازةِ العلمية على المذهب الحنفي وهو في سنِّ الثامنة عشرة من عمره.

تتلمذَ رَحِمَهُ اللهُ على الشيخ ملاَّ علي الحصيري، العالِم الفقيه. والسيد أحمد الفخري الملقب بابنِ أمين الفتوى، وهو الذي أجازَهُ. وغيرهما من علماء الموصل.

حَيَاتُهُ السِّيَاسِيَّةُ:

سُجن سنة ١٩١٨م في بيروت، واعتقل سنة ١٩١٩م في مصر ثم في الهند. وأُنذر بمغادرة العراق سنة ١٩٢٠م. وفي الحرب العامة في عهد الدولة العثمانية البائدة تطوَّع في حملة الزحف على ترعة السويس عضواً في هيئة العلم النبوي، وزار في وفد علمي جبهة الحرب في الدردنيل.

وفي سنة ١٩٢٦م مثَّل حكومة العراق في مؤتمر الخلافة بمصر. واشترك في المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٣٢م.

ومما كُلِّفَ به في الحكومة العثمانية المنقرضة منصب الإفتاء ثم الترشيح الحكومي لعضوية الْمَجلسِ النيابِيِّ العثماني في سنة ١٩١٢م. وكان حينئذ في العاصمة – اسطنبول–.

ومما كُلِّفَ به في حكومةِ العراق وزارة الأوقاف سنة ١٩٢٢م، فأَبَى أن يكون له مستشارٌ أجنبي في مؤسَّسة دينية، ثم منصب الإفتاء سنة ١٩٢٣م وكان قد شَرَطَ على منتخبيهِ من الشَّعب أن يكون من غيرِ راتبٍ ثم قال للحكومة: لا أخدمُ ديني بدراهم. ثم وزارة المعارف

ونيابة الْمَجلسِ التأسيسيِّ سنة ١٩٢٤م فقال: ما أريدُ أن يكون لي في القتيلِ طعنةٌ، وذلك بعدَ اطِّلاعه على نصوصِ المعاهدة العراقيــة البريطانية المطلوب تصديقُها وعلى متنِ القانون الأساسي الْمُزْمَعِ وضعهُ، إذ أعطاه الملك فيصل ملك العراق يومئذ نسخةً منه يسألهُ رأيه فأعادها مع (٢٧) اعتراضاً.

ومما كُلِّفَ به الترشيحُ الحكومي لنيابة الْمَجلسِ النيابِيِّ سنة ١٩٢٥. ثم التدريس لكرسيين في كليَّة آلِ البيت في عاصمة العــراق ســنة ١٩٢٦م ثم عضوية مجلسِ الأعيان سنة ١٩٢٧م. ثم القضاء الشرعي في بغداد سنة ١٩٣٣م ثم القضاء الشرعيّ في لواء الموصــلِ ســنة ١٩٣٤م.

آثَارُهُ وَمُؤَلَّفَاتُهُ:

ومن آثاره ومؤلَّفاته المطبوعة: خطبةُ نادي الشرق، وجنايات الإنكليز على البشرية عامَّة وعلى المسلمين خاصة، وحبــلُ الاعتصــام في وجوب الخلافة في دين الإسلام وهو موضوعُ بحثنا ودراستنا، وبايتختده نطقلرم (وهي مجموعة خُطب باللغة التركية ألقَاها سنة ١٩١٥م في إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية إذ زارَ جبهة الحرب في الدردنيل). وصدَى الحقيقة في العاصمة (وهي تعريبُ تلك الخطب)، والنواةُ في حقول الحياة، والفتوى الشرعية في جهاد الصهيونية، وذكرى حبيب (وهو ديوان شعره العربِي، بتحقيق أ. أحمد الفخري رَحِمَهُ اللهُ).

وأما كتبهُ التي لم تطبع فهي: ميزانُ التشريع-كتاب في أصول الفقه- (مفقود)، والديمقراطية الحقيقية في الإسلام – مفقود إلا فصلٌ منه- ، وماذا في عاصمة العراق من سُمٍّ وترياقٍ؟ (وقد حالت الحكومة العراقية بحيلةٍ قانونية دون إتمام طبعهِ بعد نشر ثلاث كرَّاسات منه سنة ١٩٣٤م)، وعلى مسرحِ الدهر ماذا رأيتُ (وهي منظومة تاريخية ذات مقدمة منثورة واسعة)، ورحلة وادي النيل، والجــراثيم الــثلاث الأمراء والعلماء والنساء (مفقود إلا فصل منه)، ورسائلُ العبيدي (وهي ثلاثة أجزاء فيما اتفق له من مراسلة الملوك والأمراء والعلمــاء والوزراء والقادة والزعماء خدمة لأهدافه الدينية أو القومية أو الوطنية وديعة للتاريخ)، وإيقاظ الوَسْنَانِ في حياة الإنســان (مفقــود)، الْمُجَادَلاتُ السياسية وأسبابُ الفشل الأساسية (مفقود)، وشفاءُ الغليل في رحلة وادي النيل (مفقود)[١٩٠].

ومن آثاره التركية: لا نهء دل، نا لهء سحر (وهما باللغة التركية من منظوم....) وقد ذهب بعض آثاره ضحية الاستبداد الغاشم.

---

[١٩٠] ينظر: أحمد مُحَمَّد المختار، تاريخ علماء الموصل: ج ٢ ص٥٣.